الفصل 1

الوهج الأخير

كان الدكتور ماهر عبد الرحمن وحيدًا في الملجأ النووي تحت المدينة عندما انفجرت القنبلة الأولى.

لم يكن الظلام كاملًا بعد. مصباح الطوارئ الأحمر كان لا يزال يومض في الزاوية البعيدة، يمنح الجدران الإسمنتية السميكة لونًا دمويًا باهتًا. كان يجلس على الحافة المعدنية للسرير العسكري، يديهِ مضمومتين حول كوب فارغ منذ ساعات، عندما جاء الوهج.

لم يكن ضوءًا عاديًا. اخترق حتى الجفون المغلقة، أبيض مزرقًّا في البداية ثم تحول إلى شيء يشبه النار الخضراء. شعرت الأرض تحت قدميه ترتج كأنها تحاول الإفلات من جاذبيتها. ثم جاء الصوت.

لم يكن انفجارًا واحدًا. كان مزيجًا هائلًا من كل أصوات الدمار التي يمكن للعقل البشري أن يتخيلها: صراخ المعدن وهو يتمزق، وانهيار المباني، وهدير الهواء وهو يحترق، وصوتًا أعلى من كل ذلك، نبضًا غريبًا يملأ الرأس ولا يترك مكانًا لأي فكرة أخرى.

ألقى بنفسه نحو الجدار القريب بغريزة حيوانية بحتة، رغم علمه أن الجدار نفسه قد ينهار عليه في أي لحظة. ظل ينتظر أن يأخذه الظلام. لكن الظلام لم يأتِ. حواسه استمرت في تسجيل كل شيء: الاهتزاز، الحرارة التي بدأت تتسرب حتى من خلال الإسمنت المسلح، والرائحة النفاذة للهواء الساخن المختلط بالغبار والإشعاع.

في مكان ما فوق رأسه، على سطح الأرض، كانت الحرب العالمية الثالثة قد بدأت فعليًا.

لم تكن حربًا على موارد أو حدود تقليدية. كانت حربًا أشعلها التطرف المستشري منذ سنوات طويلة. من جهة، تصاعد الخطاب السني المتشدد مدعومًا من باكستان وطالبان أفغانستان، ومن جماعات الإخوان والسلفيين في ليبيا، ومن دعم تركي أردوغاني ومن بقايا تنظيمات في سوريا تحت رايات مختلفة، ومن أموال وتحالفات آل سعود وآل ثاني التي غذت لسنوات روافد التشدد. ومن الجهة الشيعية المتشددة أيضًا، ومن الجانب اليهودي المتطرف في إسرائيل التي رأت في التصعيد فرصة لتأمين وجودها إلى الأبد بأي ثمن. ومن الجهة المقابلة، ردت أمريكا وبريطانيا وروسيا والصين

وفرنسا بتحالفات متسرعة وحسابات نووية باردة، كل طرف يرى في الآخر تهديدًا وجوديًا لا يمكن احتواؤه إلا بالضربة الأولى.

النتيجة كانت واحدة: مدن كاملة تتحول إلى وهج أخضر وأبيض في دقائق.

ماهر لم يكن يفكر في السياسة في تلك اللحظة. كان يفكر فقط في أن يده ترتعش حول الكوب الفارغ، وأن الهواء داخل الملجأ بدأ يسخن رغم أنظمة التهوية، وأن صوت الانهيار فوقه يستمر بلا نهاية.

بعد ما بدا ساعات (أو دقائق؛ الزمن فقد معناه)، خفت الوهج قليلًا. أصبح لونه أقرب إلى الأخضر الشاحب الذي يُرى من خلف الجفون. الاهتزاز استمر، لكنه أصبح أقل عنفًا. ثم جاء الصمت الغريب.

ليس صمتًا حقيقيًا. كان هناك صفير بعيد، وصوت إعصار يدور حول المكان الذي كان مدينة قبل قليل. لا أصوات بشرية. لا صراخ. لا شيء يدل على حياة.

ماهر رفع رأسه ببطء. المصباح الأحمر كان لا يزال يومض. الهواء ثقيل وساخنا. وفي مكان ما داخل صدره، بدأ يدرك الحقيقة البسيطة والمرعبة:

لقد نجا.

بينما مات الملايين فوقه في لحظات.

أخرج من جيبه صورة صغيرة مهترئة لزوجته وابنته. نظر إليها في الضوء الأحمر الخافت. ثم طواها بعناية وأعادها إلى مكانها.

العالم الذي كان يعرفه انتهى.

وما تبقى... لم يكن يعرف بعد إن كان يستحق البقاء.

خارج الملجأ، فوق طبقات الإسمنت والرماد والإشعاع، كانت الأرض لا تزال ترتعش من الضربات التالية.

وفي مكان ما أبعد بكثير، فوق الغلاف الجوي المحترق، كانت سفن رمادية مجهولة تبدأ رحلتها نحو كوكب الأرض المدمر.

لكن ماهر لم يكن يعرف ذلك بعد.

كان يعرف فقط الوهج، والاهتزاز، والصمت الذي جاء بعد نهاية العالم.

الفصل 2

أيام الرماد

مرّت أيام قبل أن يجرؤ أحد على فتح باب الملجأ.

في الداخل كان الهواء يزداد ثقلًا يومًا بعد يوم. أنظمة التهوية تعمل بصعوبة، والمرشحات بدأت تمتلئ بغبار ناعم يحمل رائحة معدنية غريبة. الإشعاع كان يتسرب ببطء، رغم كل طبقات الإسمنت والرصاص. الناس يسعلون أكثر. البعض بدأت تظهر على جلودهم بقع حمراء داكنة. آخرون كانوا يستلقون في الزوايا ولا يقومون.

ماهر عبد الرحمن أصبح الطبيب الوحيد المتبقي في الملجأ. الطبيب الثاني مات في اليوم الثالث بعد أن تقيأ دمًا لساعات. الآن كان ماهر يتنقل بين الأسرة المعدنية، يوزع المسكنات القليلة المتبقية، ويقيس الجرعات بمعداد جيجر قديم يرتعش عقربه بلا توقف.

في الليل، عندما يخفت الضجيج، كان يجلس وحيدًا في زاويته ويفتح الصورة الصغيرة مرة أخرى. زوجته ليلى وابنته ندى. آخر مرة رآهما كانت قبل أسبوعين من الانفجار الأول، عندما أصرّ على أن يبقيا في المنزل الريفي خارج المدينة «لأنه أكثر أمانًا». المنزل الريفي كان في اتجاه الريح. لم يبقَ منه شيء.

كان يعرف أنه ساهم، بطريقة ما، في هذا الرماد. أبحاثه القديمة في فيزياء المفاعلات، التقارير التي كتبها، الاجتماعات التي حضرها بصمت وهو يرى التطرف يغلي من كل الجهات: من باكستان وطالبان والإخوان والسلفيين وأردوغان وجولاني، ومن إسرائيل المتشددة، ومن الردود المتصاعدة لأمريكا وروسيا والصين وبريطانيا وفرنسا. الجميع كان يصرخ بالوجود والهوية والنهاية الحتمية للآخر. وهو اكتفى بتسجيل الملاحظات.

الآن لم يعد هناك أحد ليسمع الملاحظات.

في اليوم السادس دخل رجل نحيل مصاب بحروق في نصف وجهه، يحمل خبرًا:

— هناك شيء... هبط خارج المدينة. بعيدًا عن اللافتات التي تحذر من الإشعاع. سفينة... أو شيء يشبه السفينة. رمادية. كبيرة.

سرت الهمهمات بسرعة داخل الملجأ. البعض ضحك ضحكات هستيرية. البعض الآخر بدأ يبكي. امرأة عجوز همست:

— ربما هم جاءوا ليُنهوا ما بدأناه.

ماهر لم يضحك ولم يبكِ. نظر إلى المعداد في يده، ثم إلى الوجوه الشاحبة حوله. كان يعرف أن معظم من في الملجأ سيموتون خلال أسابيع، حتى لو لم يخرجوا. الإشعاع كان داخل العظام الآن.

في الليلة نفسها جلس مع مجموعة صغيرة حول مصباح يعمل بالبطارية. الرجل المحروق كان يكرر وصف السفينة: دائرة معدنية غريبة، خطوط سوداء، هبطت بهدوء كأن الأرض لم تكن تموت تحتها.

— هل رأيتم أحدًا يخرج منها؟ سأل ماهر.

— لا. ظلت مغلقة. لكن... هناك من يقول إنهم سمعوا صوتًا. تسجيلًا أو شيئًا مشابهًا.

ماهر أغمض عينيه. خلف جفنيه عاد الوهج الأخضر لحظة. ثم صورة ليلى وندى. ثم الرماد.

إذا كانت هناك سفينة... وإذا كانت حقيقية... فهل هي خلاص؟ أم مجرد امتداد للجنون الذي أحرق العالم؟

في الصباح التالي، عندما فتحوا الباب الخارجي لأول مرة بحذر شديد، اندفع هواء ساخن مليء بالغبار الناعم. الأفق كان رماديًا مائلًا إلى الأصفر. لا طيور. لا حشرات. فقط صمت واسع ورائحة احتراق قديم.

وعلى مسافة بعيدة، وراء اللافتات المحطمة التي تحذر من الموت الإشعاعي، كان هناك شيء رمادي يلمع تحت السماء المسمومة.

ماهر وقف على العتبة طويلًا، يده تمسك بحافة الباب المعدني. خلفه كان الملجأ يموت ببطء. أمامه كان المجهول يجلس بهدوء فوق الرماد.

ولأول مرة منذ الوهج الأخير، شعر بشيء يشبه الفضول يختلط باليأس.

ربما لم تنتهِ القصة بعد.

أو ربما كانت هذه مجرد بداية لنهاية أخرى.

الفصل 3

السفينة الرمادية

خرجوا في مجموعة صغيرة عند الفجر.

ماهر كان في المقدمة، يرتدي بدلة واقية مهترئة ومعه عداد جيجر يرتعش بلا انقطاع. خلفه سار الرجل المحروق الوجه، وامرأتان، وثلاثة رجال آخرين ما زالوا قادرين على المشي. الباقون في الملجأ رفضوا الخروج. بعضهم قال إن السفينة فخ، وبعضهم لم يعد يملك القوة حتى للوقوف.

السماء كانت رمادية مائلة إلى الأصفر، ثقيلة بالغيوم المشعة. لا شمس حقيقية، فقط توهج باهت من خلف الطبقات. الأرض تحت أقدامهم مغطاة بطبقة ناعمة من الرماد والغبار، وفي بعض الأماكن كانت لا تزال ساخنة.

بعد ساعة من المشي الحذر ظهر الشكل.

كانت السفينة أكبر مما تخيلوا. دائرة معدنية رمادية قطرها يقارب الأربعين مترًا، ترتفع عن الأرض على أرجل قصيرة سميكة. خطوط سوداء رفيعة تمتد على سطحها كأوردة. لا نوافذ. لا علامات. لا شيء يدل على أنها صنعتها يد بشرية.

توقفوا على مسافة خمسين مترًا. العداد في يد ماهر ارتفع عقربه فجأة ثم عاد إلى مستواه السابق. الغريب أن الإشعاع حول السفينة كان أقل من المنطقة المحيطة.

— هل ترون أحدًا؟ همس أحد الرجال.

— لا. أجابت المرأة ذات الشعر الأحمر المقصوص بشكل غير منتظم. كانت تدعى سارة، وكانت من القلائل الذين احتفظوا بشيء من الحدة في عيونهم.

اقتربوا أكثر. مع كل خطوة كان الخوف يختلط بفضول مرير. هذه الشيء هبط على أرض ميتة، في زمن لم يعد فيه أحد يهبط أو يقلع.

عندما وصلوا إلى ظلها، اكتشفوا الفتحة.

كانت شبه دائرية، على ارتفاع مترين من الأرض، ومغلقة بلوح معدني ناعم. لا مقبض. لا أزرار ظاهرة. ماهر مد يده بحذر ولمس السطح. كان باردًا، رغم الهواء الساخن حولهم.

فجأة انزلقت الفتحة إلى الأعلى بصوت مكتوم.

تراجع الجميع خطوة إلى الوراء. سارة رفعت قطعة معدن حادة كانت تحملها كسلاح بدائي. لكن لم يخرج أحد.

الداخل كان مظلمًا في البداية، ثم أضاء بضوء أبيض ناعم لا مصدر واضح له. الممر أمامهم قصير وينتهي بغرفة دائرية واسعة.

دخل ماهر أولًا.

الغرفة كانت فارغة تمامًا من أي وجود حي. جدران ملساء، أرضية معدنية، وفي الوسط عمود منخفض عليه ما يشبه لوحة مسطحة. لا مقاعد. لا أدوات. لا جثث. لا شيء.

ثم جاء الصوت.

لم ينبعث من مكبر مرئي. بدا وكأنه يأتي من الجدران نفسها، أو من الهواء. كان مركبًا بطريقة غريبة: كلمات عربية واضحة، لكن كل كلمة تبدو كأنها مأخوذة من فم مختلف، رجالي ونسائي، بلهجات متعددة، كأنها جُمعت من تسجيلات كثيرة وصِيغت في رسالة واحدة:

«يا أهل الأرض... هذا العالم الذي تسمونه موطنكم أصبح غير صالح. نحن نقدم لكم نصف كوكب آخر. كوكب تسمونه الزهرة. فقط للذين لم يصبهم المرض الإشعاعي. أحضروا معكم حيواناتكم وبذور نباتاتكم السليمة. السفينة سترفض أي جسد ملوث. الرحلة قصيرة. القرار لكم.»

انتهى الصوت. ثم عاد يكرر الرسالة من البداية، بنفس التركيب الغريب للكلمات.

ماهر وقف في وسط الغرفة الدائرية، يسمع الرسالة للمرة الثالثة. خلفه كان الآخرون يدخلون واحدًا تلو الآخر، وجوههم شاحبة تحت الضوء الأبيض الناعم.

سارة قالت بصوت منخفض:

— هم يتكلمون بلغتنا... لكنهم ليسوا منا.

الرجل المحروق لمس الجدار.

— فارغة. تمامًا. كيف وصلت؟ من يقودها؟

ماهر لم يجب. كان يحدق في اللوحة الوسطى. تحتها، بشكل خافت، ظهرت رموز غير مفهومة تتحرك ببطء كأنها تنتظر تفاعلًا.

خارج السفينة، كان الرماد لا يزال يغطي الأرض، والمدينة المدمرة تمتد كهيكل عظمي أسود تحت سماء مسمومة.

وداخلها، كان صوت مركّب من أصوات بشرية ميتة يعرض عليهم عالمًا آخر.

الأمل كان قد وصل أخيرًا.

لكنه جاء على شكل سؤال أكبر من كل الأسئلة التي طرحوها منذ الوهج الأخير:

من هم؟

ولماذا ينقذون من أبادوا أنفسهم؟

الفصل 4

الدعوة

أعادوا تشغيل الرسالة اثنتي عشرة مرة.

في كل مرة كان الصوت المركّب يخرج من الجدران بنفس الطريقة: كلمات واضحة، لكن كل لفظة مأخوذة من فم مختلف، رجالي ونسائي، بلهجات متعددة، كأنها انتُزعت من محادثات قديمة على الأرض وصِيغت في نص واحد متماسك.

«يا أهل الأرض... هذا العالم الذي تسمونه موطنكم أصبح غير صالح. نحن نقدم لكم نصف كوكب آخر. كوكب تسمونه الزهرة. فقط للذين لم يصبهم المرض الإشعاعي. أحضروا معكم حيواناتكم وبذور نباتاتكم السليمة. السفينة سترفض أي جسد ملوث. الرحلة قصيرة. القرار لكم.»

بعد المرة الأخيرة ساد صمت ثقيل داخل الغرفة الدائرية. الضوء الأبيض الناعم لم يتغير. اللوحة الوسطى استمرت في عرض رموزها البطيئة.

نزلوا من السفينة وتجمعوا على الرماد تحت ظلها. بحلول ذلك الوقت كان عدد الناجين الذين وصلوا إلى المكان قد ازداد. أخبار السفينة انتشرت بسرعة داخل الملجأ وخارجه، وجاء آخرون يزحفون أو يتعثرون، بعضهم نصف محترقين، وبعضهم يسعلون دمًا، لكنهم جميعًا أرادوا أن يسمعوا بأنفسهم.

ماهر وقف على مرتفع صغير من الأنقاض. حوله وجوه شاحبة ومرتعشة.

— الرسالة واضحة. قال بصوت حاول أن يجعله هادئًا. يدعوننا إلى الزهرة. نصف الكوكب. بشرط واحد أساسي: ألا نكون مصابين بالإشعاع. ويطلبون أن نأخذ معنا حيوانات وبذورًا غير ملوثة.

سارة، ذات الشعر الأحمر، رفعت رأسها.

— ومن هم «نحن» هذه؟ لماذا ينقذوننا بعد أن أحرقنا عالمنا بأنفسنا؟

رجل مسن يتكئ على عصا معدنية ضحك ضحكة جافة.

— مصيدة. واضحة. يأخذون الأصحاء فقط ليحرثوا لهم أو ليُستخدموا في تجارب. أو أسوأ.

امرأة تحمل طفلًا صغيرًا ملفوفًا بقطعة قماش قالت بصوت مبحوح:

— وابني؟ العداد يرتفع عندما أقربه منه. هل يتركونه هنا ليموت؟

همهمات غاضبة ودموع مختنقة امتزجت معًا. البعض بدأ يصرخ أن هذه فرصة الله الأخيرة. البعض الآخر يقسم أنها امتداد لنفس الجنون الذي أشعل الحرب: التطرف الذي جعل الجميع يرى في الآخر عدوًا يجب محوه، من باكستان وطالبان والإخوان وأردوغان وجولاني وآل سعود وآل ثاني وإسرائيل، إلى الردود الوحشية من أمريكا وروسيا والصين وبريطانيا وفرنسا. الآن يأتي «منقذ» جديد بشروطه الخاصة.

ماهر رفع يده حتى هدأ الضجيج نسبيًا.

— أنا لا أعرف من هم. ولا أعرف لماذا يفعلون هذا. لكنني أعرف شيئًا واحدًا: معظمنا سيموت هنا خلال أسابيع أو أشهر. الإشعاع داخلنا. الملجأ يتحول إلى قبر جماعي بطيء. السفينة تقول إنها سترفض الأجساد الملوثة. هذا يعني أن هناك طريقة للفرز. وإذا كانت حقيقية... فهي الفرصة الوحيدة التي بقيت.

سارة اقتربت منه.

— وإذا كانت كاذبة؟ وإذا دخلنا ولم نخرج أبدًا؟

— إذن نموت هناك بدل أن نموت هنا. الفرق أن هناك احتمالًا، ولو ضئيلًا، أن يكون الكلام صادقًا.

الرجل المسن بصق على الرماد.

— أنت عالم. كنت جزءًا من النظام الذي أوصلنا إلى هنا. لماذا نصدقك الآن؟

ماهر لم يجب فورًا. نظر إلى الصورة الصغيرة في جيبه دون أن يخرجها، ثم قال بهدوء:

— لأنني فقدت كل شيء. مثلكم. ولأنني لم أعد أملك شيئًا أخسره سوى ما تبقى من أيام قليلة مليئة بالسعال والقيء والخوف. إذا كان هناك نصف كوكب ينتظر... فأنا سأذهب. ومن أراد أن يبقى ليدفن الآخرين أو يُدفن معهم، فليبقَ.

الصمت عاد، لكنه كان مختلفًا هذه المرة. أقل غضبًا، وأكثر ثقلًا.

في الخلفية، من داخل السفينة المفتوحة، كان الصوت المركّب يعيد الرسالة من جديد، بلا كلل، كأنه ينتظر قرارًا جماعيًا لن يأتي بسهولة.

فوقهم كانت السماء المسمومة لا تزال رمادية.

وتحت أقدامهم كان الرماد يغطي ما تبقى من عالمهم.

وأمامهم كانت سفينة رمادية فارغة تعرض عليهم بداية أخرى... بشروطها هي.

الجدل لم ينتهِ في تلك الساعة.

لكن البذرة زُرعت.

وبعض العيون بدأت تنظر إلى السفينة لا كتهديد فقط، بل كباب.

باب قد يؤدي إلى الزهرة.

أو إلى نهاية أسرع.

الفصل 5

الاختيار

في اليوم التالي بدأت السفينة نفسها في الفرز.

لم يكن هناك طابور بشري تقليدي. كان هناك خط غير مرئي على بعد عشرين مترًا من الفتحة. كل من تجاوزه شعر بشيء يشبه ضغطًا خفيفًا على الجلد، ثم إما أُذن له بالاقتراب أو رُفض بهدوء حازم. من رُفضوا كانوا يتراجعون فجأة كأن جدارًا غير مرئي دفعهم، وبعضهم سقط على الرماد وهو يسعل أو ينزف من الأنف.

ماهر راقب العملية لساعات. العداد الذي في يده أكد ما كانت السفينة تفعله: أي جسد تجاوزت فيه الجرعة الإشعاعية حدًا معينًا يُرفض فورًا. حتى الحيوانات التي أحضروها — كلاب هزيلة، ماعزتين، دجاجات قليلة — خضعت لنفس الفحص. البذور التي جمعوها من تحت الرماد فُحصت هي الأخرى بطريقة لا يفهمونها.

سارة وقفت إلى جانبه، عيناها لا تفارقان الطفل الصغير الذي كانت أمه تحاول دفعه إلى الأمام مرة بعد مرة. في كل مرة كان الطفل يُرفض. الأم بدأت تصرخ، ثم تنهار على ركبتيها.

— هذا ليس اختيارًا. قالت سارة بصوت منخفض. هذا إعدام بطيء لمن تبقى فيه شيء من الحياة.

ماهر لم يرد. كان يعرف أنها على حق. لكنه كان يعرف أيضًا أن البقاء هنا يعني الإعدام نفسه، فقط بشكل أبطأ وأكثر قذارة.

عندما جاء دوره تقدم ببطء. الضغط الخفيف مرّ على جلده، ثم اختفى. السفينة قبلته. العداد في جيبه كان لا يزال يرتفع، لكن تحت الحد المسموح على ما يبدو. أو أن السفينة كانت تقرر بمعاييرها هي.

سارة اجتازت هي الأخرى. الرجل المحروق الوجه رُفض بعد محاولتين. بكى بصمت وهو يبتعد. المرأة العجوز التي كانت تهمس في الملجأ رُفضت أيضًا. قبلت رأس ماهر عندما مرّ بجانبها وقالت فقط:

— عش بما يكفي لتتذكرنا.

الوداع لم يكن طويلًا. لم يكن هناك وقت ولا قوة لخطب. معظم من رُفضوا عادوا إلى الملجأ أو جلسوا على الرماد ينظرون. البعض لوح بأيديهم. البعض الآخر أدار ظهره.

ماهر صعد السلم المعدني الذي امتد من الفتحة. داخل الغرفة الدائرية كان الضوء الأبيض الناعم ينتظر. خلفه دخلت سارة، ثم رجلان، ثم امرأة شابة تحمل كيسًا صغيرًا من البذور، ثم طفل في العاشرة بدا نظيفًا من الإشعاع بمعجزة. مجموعة صغيرة. أقل بكثير مما تمنى. أكثر بقليل مما توقع.

عندما امتلأت الغرفة بعدد كافٍ، انغلقت الفتحة بصوت مكتوم.

لم يكن هناك اهتزاز عنيف. فقط شعور خفيف بالصعود، كأن الأرض نفسها تبتعد عنهم ببطء. من خلال جدار شفاف ظهر فجأة في أحد الجوانب، رأوا المدينة المدمرة تصغر، ثم الرماد يمتد إلى الأفق، ثم الغلاف الجوي السميك يبتلع كل شيء.

ماهر وضع يده على الجيب الذي فيه الصورة. ليلى وندى. لم يعد هناك منزل ريفي ليعود إليه. لم يعد هناك قبر يزوره. فقط رماد، وملجأ يموت، وسفينة رمادية تحمله إلى كوكب لم يره أحد من قبل.

سارة جلست على الأرض المعدنية، ظهرها إلى الجدار، وسألت بصوت خافت:

— هل تعتقد أننا سنصل؟

ماهر نظر إلى الجدار الشفاف حيث كانت الأرض تختفي خلف السحب المشعة.

— لا أعرف. لكننا لم نعد هناك. وهذا... في حد ذاته، بداية.

خارج السفينة، كانت السماء المسمومة تبتلع آخر نظرة إلى ما تبقى من عالمهم.

وداخلها، كان الضوء الأبيض يستمر، والصوت المركّب صامتًا هذه المرة، كأنه قال كل ما لديه.

الاختيار اكتمل.

والباب إلى الأرض أُغلق خلفهم إلى الأبد.

الفصل 6

الرحلة

لم تكن هناك نوافذ حقيقية في البداية.

الجدار الشفاف الذي ظهر لحظة الإقلاع اختفى بعد دقائق، وعادت الجدران المعدنية الملساء تحيط بهم من كل جانب. الضوء الأبيض الناعم استمر دون أن يتغير، لا ليل ولا نهار. لا اهتزاز يُذكر. لا صوت محركات. فقط إحساس خفيف مستمر بالحركة، كأن السفينة تسبح في سائل لا يُرى.

كانوا اثني عشر شخصًا في الغرفة الدائرية. بعضهم جلس على الأرض، وبعضهم استند إلى الجدران. الطعام ظهر من فتحات صغيرة في الجدران بعد ساعات: مكعبات عديمة الطعم لكنها تملأ المعدة، وماء نظيف بدرجة حرارة معتدلة. لم يسأل أحد كيف. لم يعد للأسئلة العملية المعنى نفسه.

سارة كانت أول من تكلم بعد صمت طويل.

— هل تشعر أن الوقت يمر؟ أم أننا عالقون في لحظة واحدة ممتدة؟

ماهر كان يجلس مقابلها، ظهره إلى الجدار، الصورة الصغيرة بين أصابعه.

— الوقت هنا لا يشبه الوقت هناك. هناك كان يُقاس بالسعال والقيء وارتفاع عقرب العداد. هنا... لا شيء يُقاس به إلا أفكارنا.

رجل خمسيني يُدعى كريم، كان مهندسًا قبل الحرب، قال وهو يحدق في السقف:

— إذا كانوا قادرين على بناء سفينة ترفض الإشعاع بهذا الدقة، وعلى السفر بهذه السرعة... فماذا يمنعهم من أن يفعلوا بنا ما يشاؤون عندما نصل؟ نحن لسنا ضيوفًا. نحن مواد منقولة.

المرأة الشابة التي تحمل كيس البذور، واسمها هالة، ردت بصوت هادئ:

— أو نحن آخر بذور بشرية قرروا أن يزرعوها في تربة أخرى. ربما هم بحاجة إلينا بقدر ما نحن بحاجة إليهم.

ضحكة قصيرة جافة خرجت من أحد الرجال في الخلف.

— حاجة؟ بعد أن أحرقنا أرضنا بسبب التطرف والأحقاد والحسابات النووية؟ من باكستان وطالبان والإخوان وأردوغان وإسرائيل إلى الردود من واشنطن وموسكو وبكين ولندن وباريس... هل تظن أن أحدًا في الكون ما زال يرى فينا شيئًا يستحق الإنقاذ؟

ماهر رفع رأسه.

— ربما لا يرون فينا خيرًا. ربما يرون فقط... وظيفة. أو توازنًا مفقودًا يحتاجون إلى ترميمه. لا يهم. نحن هنا الآن. والأرض خلفنا.

قالها بهدوء، لكن الكلمة الأخيرة علقت في الهواء. «خلفنا». للمرة الأولى منذ الصعود شعر الجميع بوزنها الحقيقي. لم يعد هناك ملجأ ليعودوا إليه. لا رماد يمشون عليه. لا جثث يدفنونها. الأرض أصبحت ذكرى مغلقة خلف جدار معدني وصوت مركّب لم يعد يتكلم.

في ساعة لاحقة، بينما كان معظمهم يحاول النوم أو التظاهر به، اقتربت سارة من ماهر وجلست إلى جانبه.

— هل ما زلت ترى وجوههم؟ زوجتك وابنتك؟

أومأ دون أن ينظر إليها.

— كل ساعة. وأحيانًا أرى وجوه الذين رُفضوا عند السفينة. الطفل. العجوز. الرجل المحروق. كأنني حملتهم معي دون أن أريد.

— وأنا أحمل أخي. كان يعمل في مفاعل. مات قبل الانفجار الكبير بأسبوعين من الجرعة. لو بقي حيًا... لما قبلته السفينة أصلًا.

صمتا. الضوء الأبيض لم يترك ظلالًا حقيقية على وجهيهما.

ثم قالت سارة بصوت أخف:

— إذا وصلنا... هل تعتقد أننا سنبقى بشرًا كما كنا؟ أم أننا سنصبح شيئًا آخر فقط لنستمر؟

ماهر لم يجب فورًا. نظر إلى كفه التي كانت تمسك الصورة، ثم أطبق عليها.

— لا أعرف. لكنني أعرف أننا لم نعد نملك ترف البقاء كما كنا. ذلك الخيار احترق مع المدن.

الرحلة استمرت. لا أحد يعرف كم ساعة أو يوم. الإحساس بالانفصال كان يكتمل تدريجيًا: الأرض لم تعد خلفهم فقط، بل أصبحت كأن لم تكن. والسفينة الرمادية كانت تحملهم في صمت تام نحو كوكب لم يروه، ولم يلمسوه، ولم يعرفوا بعد إن كان خلاصًا أم مجرد مقبرة أنظف.

في لحظة ما، شعر ماهر بثقل خفيف في معدته، ثم استقرار مفاجئ. الضوء تغير قليلًا. الجدار الشفاف عاد للظهور، وهذه المرة لم يُظهر أرضًا محترقة.

أظهر سماءً برتقالية رمادية، وغيومًا كثيفة، وأفقًا مقوسًا لكوكب آخر.

الزهرة كانت تنتظر.

والرحلة... كانت قد انتهت.

الفصل 7

الهبوط

الشعور بالاستقرار جاء أولًا، ثم اهتزاز خفيف جدًا، ثم صمت أعمق من صمت الرحلة.

الجدار الشفاف اتسع فجأة ليعرض المشهد كاملًا. لم تكن هناك سماء زرقاء. كانت هناك طبقات كثيفة من غيوم برتقالية رمادية تتحرك ببطء، وفي الأسفل امتداد غير واضح لسطح يبدو مائلًا إلى البني والوردي من بعيد. الضوء كان خافتًا ومنتشرًا، بلا شمس واضحة، كأنه يأتي من كل مكان في آن واحد.

انزلقت الفتحة إلى الأعلى بنفس الصوت المكتوم الذي سمعوه على الأرض.

الهواء الذي دخل كان دافئًا ورطبًا، ورائحته غريبة: مزيج من تراب مبتل وشيء حلو خفيف يشبه الزهر المتعفن. ماهر كان أول من اقترب من الحافة ونظر إلى الخارج.

الأرض تحت السفينة لم تكن رمادًا. كانت تربة داكنة مغطاة في بعض المناطق بأعشاب قصيرة ذات لون أخضر مائل إلى الرمادي. وعلى مسافة ليست بعيدة، بدأت أشجار عالية تظهر. جذوعها سميكة وملساء، وأوراقها عريضة بيضاوية، لونها وردي داكن عند القاعدة يتحول إلى أرجواني زاهٍ عند الأطراف. ومن كل ورقة كان يمتد طرفان رفيعان يشبهان الهوائيات، يتحركان ببطء في كل الاتجاهات حتى مع غياب أي ريح ملموسة.

سارة وقفت إلى جانبه.

— هذه... أشجار؟

— أو شيء قرر أن يكون شجرًا. أجاب ماهر بصوت منخفض.

نزلوا واحدًا تلو الآخر. التربة تحت أقدامهم كانت طرية ورطبة. الجاذبية بدت قريبة من جاذبية الأرض، لكن الهواء أثقل قليلًا، ويجعل التنفس أعمق مما اعتادوا. خلفهم كانت السفينة الرمادية تبدو الآن كفطر عملاق هبط في مكان لا ينتمي إليه.

ثم جاء الصوت.

هذه المرة لم يكن مركبًا من أصوات بشرية متعددة. كان صوتًا واحدًا، غريب النبرة، كأن حنجرة غير بشرية تحاول تقليد الكلام الإنساني بدقة شديدة:

«أنتم الآن على الكوكب الذي تسمونه الزهرة. أنتم أول من يصل. السفن الأخرى ستهبط تباعًا في أماكن مختلفة. هذا النصف من الكوكب أُخلي من كل نبات عالٍ. لا تلمسوا النباتات المحلية ولن تهاجمكم. يمكنكم أن تتركوا السفينة الآن. غدًا... سنُدعون لمعرفة كيف صُنعت سفن الفضاء.»

الصوت تلاشى في الهواء الرطب. لم يتكرر. لم يشرح أكثر.

الناجون الاثنا عشر وقفوا في دائرة غير مكتملة حول السفينة، ينظرون إلى الأشجار الوردية التي تتحرك هوائياتها ببطء، وإلى الغيوم الكثيفة التي تحجب أي نجوم أو شمس حقيقية، وإلى الأفق الذي يبدو لا نهائيًا ومغلقًا في الوقت نفسه.

هالة، حاملة البذور، همست:

— نجونا.

كريم المهندس رد بصوت أجش:

— أم دخلنا قفصًا أكبر؟

ماهر لم يشارك في الجدل. سار بضع خطوات بعيدًا عن السفينة، راكعًا، وأخذ حفنة من التربة بين يديه. كانت باردة ورطبة، وتلتصق بأصابعه. رفع رأسه نحو الأشجار القريبة. إحدى الهوائيات الوردية دارت ببطء نحوه، كأنها تلاحظ وجوده.

خلفه كانت الأرض المحترقة على بعد ملايين الكيلومترات، مليئة بالرماد والجثث والإشعاع والذكريات.

أمامه كان عالم جديد بالكامل: غريب، رطب، وردي، وصامت بطريقة تجعل الصمت نفسه يبدو واعيًا.

شعر ماهر بشيء يختلج في صدره. لم يكن أملًا صافيًا، ولا خوفًا صافيًا. كان المزيج الثقيل الذي يأتي عندما تُغلق كل الأبواب خلفك، وتُفتح أمامك بوابة لا تعرف إلى أين تؤدي.

النجاة حدثت.

لكن المجهول الحقيقي... كان قد بدأ الآن فقط.

رفع ماهر نظره إلى الغيوم البرتقالية الكثيفة، ثم إلى رفاقه الذين لا يزالون يقفون قرب السفينة كأطفال ضلوا الطريق.

— حسنًا. قال بصوت مسموع للمرة الأولى منذ الهبوط. نحن هنا. والآن... نكتشف إن كان هذا البيت الجديد يقبلنا، أم أننا مجرد ضيوف إلى حين.

الريح لم تهب. لكن أوراق الأشجار الوردية تحركت جميعها في اتجاه واحد للحظة قصيرة، ثم عادت إلى حركتها البطيئة العشوائية.

كأنها سمعت.

وكأنها أجابت دون كلمات.

انتهى الجزء الأول: الرماد والدعوة

الفصل السابع يغلق الجزء الأول عند نقطة الوصول والدهشة الأولى، مع بقاء السؤال الأكبر مفتوحًا: من هم المضيفون الحقيقيون؟ وماذا يريدون فعلاً؟

الفصل 8

الأيام الأولى

في الصباح الأول لم يكن هناك صباح حقيقي.

الضوء ازداد تدريجيًا من خلف الغيوم البرتقالية الكثيفة، حتى أصبح يكفي للرؤية بوضوح، لكنه لم يصبح يومًا ساطعًا أبدًا. ظل خافتًا ومنتشرًا، كأن الشمس خلف حجاب دائم. الهواء رطب ودافئ، ورائحة التربة المبتلة مختلطة بشيء حلو خفيف يصدر من الأشجار الوردية.

المجموعة الصغيرة نصبوا مظلة بدائية من قطع قماش أحضروها معهم، واستخدموا بعض الصناديق المعدنية التي وجدوها فارغة داخل السفينة كمقاعد وطاولات. السفينة نفسها بقيت مغلقة بعد أن نزلوا، كأنها أدت مهمتها ولم تعد معنية بهم.

ماهر قضى الساعات الأولى يمشي في دوائر واسعة حول الموقع. التربة طرية تحت قدميه، وفي بعض الأماكن تظهر بقع من عشب قصير رمادي-أخضر. الأشجار الوردية تقف على مسافات غير منتظمة، أوراقها العريضة تتحرك ببطء حتى في غياب الريح، وهوائياتها الرفيعة تدور كأنها تلتقط إشارات لا يسمعها البشر.

سارة انضمت إليه بعد قليل.

— هل تشعر به؟ سألته.

— بماذا؟

— أننا لسنا وحدنا. كأن شيئًا يراقب. ليس بعدوانية... لكن بانتباه مستمر.

ماهر أومأ. كان قد شعر بالشيء نفسه منذ لحظة الهبوط. الهوائيات لا تتوقف عن الحركة، وفي كل مرة يدير رأسه بسرعة يتخيل أنها كانت موجهة نحوه قبل لحظة.

هالة، حاملة البذور، اختارت بقعة تربة تبدو أكثر خصوبة وبدأت تحفر بأداة معدنية بسيطة. زرعت جزءًا من البذور التي أحضرتها: قمح، فول، وبعض بذور الخضروات التي نجت من الإشعاع. الماء كان متوفرًا من جدول صغير قريب، ماءه صافٍ لكنه ذو طعم معدني خفيف.

كريم المهندس جلس بعيدًا قليلاً، يراقب الأشجار دون أن يقترب.

— لا تلمسها. قال فجأة. الرسالة قالت ذلك. «لا تلمسوا النباتات المحلية».

— لم نلمسها. ردت هالة بهدوء. نحن نزرع ما لنا.

في اليوم الثاني ظهرت أول علامة غريبة.

إحدى الشتلات التي زرعتها هالة نبتت بسرعة غير طبيعية. خلال ساعات كانت قد ارتفعت عدة سنتيمترات. لكن في الليلة نفسها ذبلت فجأة، كأن شيئًا سحب الحياة منها. في الصباح التالي كانت التربة حولها قد تغير لونها قليلاً.

ماهر ركع بجانبها وفحصها.

— ربما التربة ترفض ما ليس منها. أو... النباتات المحلية ترفضه.

سارة نظرت إلى أقرب شجرة وردية. إحدى هوائياتها كانت موجهة مباشرة نحو البقعة المزروعة.

— إنهم يراقبون ما نفعله. لسنا نزرع في أرض فارغة. نحن نزرع في أرض لها أصحاب.

خلال الأيام التالية استمر الروتين الحذر. ينامون بالتناوب. يأكلون من المخزون القليل الذي أحضروه مع المكعبات التي كانت السفينة لا تزال توفرها بطريقة ما. يحاولون توسيع المساحة المزروعة خطوة صغيرة كل يوم. وفي كل مرة يقترب فيها أحدهم أكثر من اللازم من صف الأشجار، يشعر بضغط خفيف في الهواء، كتحذير صامت.

في الليلة الرابعة، بينما كان معظمهم نائمًا، استيقظ ماهر على صوت خفيف. خرج من تحت المظلة. الأشجار كانت أقرب مما تذكر. أو أن الظلال خدعت عينيه. هوائياتها تتحرك جميعها في تناغم بطيء هذه المرة، كأنها تتحدث فيما بينها.

رفع رأسه نحو الغيوم الكثيفة.

— نحن هنا. همس. كما أردتم. والآن... ماذا تريدون منا بالضبط؟

لم يأتِ رد. فقط حركة بطيئة إضافية من الأوراق الوردية، ثم عودة إلى الإيقاع السابق.

ماهر عاد إلى مكانه تحت المظلة. حوله كان رفاقه الأحد عشر ينامون أو يتظاهرون بالنوم. السفينة الرمادية تقف صامتة كحارس قديم. والأشجار... الأشجار كانت مستيقظة.

الأيام الأولى انتهت.

والشعور بأنهم ليسوا وحدهم على هذا الكوكب أصبح الآن يقينًا صامتًا لا يمكن تجاهله.

الفصل 9

الخط المحظور

في اليوم السادس اكتشفوا الخط.

كان كريم هو أول من لمسه. خرج في الصباح الباكر بدافع الفضول، يتبع صفًا من الأشجار الوردية التي بدت أقل كثافة في جهة الشرق. بعد حوالي أربعمائة متر شعر

فجأة بضغط قوي على صدره، كأن ريحًا عاتية هبت في وجهه دون أن تتحرك ورقة واحدة. حاول التقدم خطوة إضافية فاندفع إلى الخلف وسقط على التربة.

عندما عاد إلى المخيم كان وجهه شاحبًا ويده ترتعش.

— هناك شيء. قال. جدار... لكنه ليس جدارًا. يدفعك. بقوة.

ماهر وسارة ذهبا معه. عند النقطة نفسها شعرا بالضغط. الهواء أمامهما بدا كثيفًا فجأة، مقاومًا كجدار غير مرئي. ماهر مد يده ببطء. شعر بمقاومة متزايدة كلما اقترب، حتى أصبحت كأنها تمنع الدم من الوصول إلى أصابعه.

— حاجز. همس. كما حذرت الرسالة الأولى. «لا تدخلوا المناطق الأخرى».

لكن الفضول كان أقوى من الحذر عند بعضهم.

في الليلة التالية خرج رجلان دون أن يخبرا أحدًا: شاب يُدعى ياسر، وامرأة في الأربعين اسمها منى. أرادا أن يعرفا ما خلف الخط. سارا معًا نحو الجهة نفسها، ودفعا نفسيهما ضد الحاجز بكل قوتهما.

الماهر سمع الصرخة من بعيد.

عندما وصلوا وجدوهما ممددين على التربة، على بعد أمتار قليلة داخل المنطقة المحظورة. كلاهما فاقد للوعي، ووجههما مصابان بخدوش سطحية كأنها من سقوط عنيف. لا جروح عميقة. لا دم كثير. لكنهما لم يستجيبا للمناداة إلا بعد دقائق طويلة من المحاولات.

عندما فتح ياسر عينيه كان أول ما قاله:

— كان هناك... شيء يشبه الريح. ثم ضربة على رأسي. كأنها يد كبيرة.

منى لم تتكلم كثيرًا. كانت ترتجف، وعيناها تحدقان في الأشجار البعيدة داخل المنطقة المحظورة.

أعادوهما إلى المخيم. خلال الساعات التالية استعادا وعيهما بالكامل، لكنهما بقيا في حالة شبه انهيار عصبي. كلاهما كرر أنهما شعرا بأن شيئًا ما «رفضهما» بقوة واعية.

في المساء نفسه عاد الصوت.

هذه المرة جاء من كل الاتجاهات دفعة واحدة، أوضح وأقرب مما كان في يوم الهبوط:

«يا أهل الأرض... لقد أرسلنا لكم السفن لتأتوا من دياركم التي انتشر بها المرض. كان الاتفاق أن تبقوا في المناطق المخصصة لكم. ومع ذلك حاول بعضكم نقض هذا الاتفاق. لا تدعوا هذا يحدث مرة أخرى. إنكم مدعوون غدًا لمعرفة كيف صُنعت سفن الفضاء. لا تقتربوا من الخط مرة ثانية.»

الصوت تلاشى. الأشجار الوردية حول المخيم حركت هوائياتها في موجة واحدة متزامنة، ثم عادت إلى حركتها البطيئة المعتادة.

سارة جلست إلى جانب ماهر تحت المظلة، صوتها منخفض:

— هم يسمعوننا. ويروننا. ويرفضوننا عندما نتجاوز. لسنا ضيوفًا أحرارًا. نحن داخل سياج.

ماهر كان يحدق في الاتجاه الذي سقط فيه ياسر ومنى.

— سياج غير مرئي. وقواعد واضحة. وغدًا... يدعوننا لرؤية كيف بنوا السفن التي أنقذتنا. كأنهم يقولون: انظروا قدرتُنا، ثم قرروا إن كنتم ستلتزمون أم لا.

كريم، الذي كان يجلس بعيدًا، قال بصوت أجش:

— أو كأنهم يقولون: انظروا من الذي يملك القوة الحقيقية هنا.

الليل نزل بطيئًا تحت الغيوم البرتقالية. ياسر ومنى ناما أخيرًا بعد أن أُعطيا ماءً ومسكنًا خفيفًا من المخزون. الباقون بقوا مستيقظين لفترة أطول، ينظرون إلى الظلام الذي لم يعد يبدو فارغًا.

الخط المحظور لم يعد مجرد تحذير في رسالة قديمة.

أصبح حقيقة ملموسة، مؤلمة، وواعية.

وغدًا... كانوا مدعوين لتجاوز نوع آخر من الخطوط.

خط المعرفة.

الفصل 10

الدعوة الثانية

الصباح التالي جاء بنفس الضوء الخافت المنتشر.

لم ينتظر الصوت طويلًا. بعد أن استيقظ الجميع وتناولوا طعامهم الشحيح، انبعث من الهواء مرة أخرى، بنفس النبرة الغريبة الدقيقة:

«يا أهل الأرض... كما وعدنا، أنتم مدعوون اليوم لرؤية كيف صُنعت سفن الفضاء التي حملتكم. اتبعوا الأشجار ذات الهوائيات الأطول في الجهة الغربية. المسافة ليست بعيدة. لا تحملوا أدوات حادة. لا تحاولوا لمس النباتات أثناء السير. نحن ننتظر.»

ثم ساد الصمت.

اجتمع الاثنا عشر تحت المظلة. الوجوه كانت متوترة. ياسر ومنى، اللذان تعرضا للحاجز قبل يوم، جلسا في الخلف دون أن يتكلما.

كريم كان أول من فتح فمه:

— هذه دعوة إلى فخ. واضح. يأخذوننا إلى مكان أبعد، داخل أراضيهم، ثم يفعلون بنا ما يريدون. لقد رأينا ماذا يحدث لمن يتجاوز الخط.

هالة هزت رأسها:

— أو هي محاولة لإثبات حسن النية. هم أنقذونا من الموت المحقق. الآن يعرضون علينا أن نرى كيف فعلوا ذلك. ربما يريدون أن نفهم قبل أن نقرر كيف نعيش هنا.

سارة نظرت إلى ماهر.

— وأنت؟ ما رأيك؟

ماهر كان صامتًا لفترة. ثم قال بهدوء:

— إذا بقينا هنا نرفض كل دعوة، سنبقى سجناء داخل سياج غير مرئي إلى أن ينفد طعامنا أو يصيبنا الجنون. هم يملكون القوة. هذا واضح منذ اليوم الأول. رفض الدعوة لن يجعلنا أقوى. قد يجعلنا فقط أكثر جهلًا بما نواجهه.

كريم ضحك ضحكة قصيرة مرة:

— إذن نذهب كخراف؟

— نذهب كمن يريد أن يعرف. أجاب ماهر. ومن لا يريد أن يأتي... يبقى. لا أحد يُجبر.

انقسمت المجموعة بسرعة. كريم وثلاثة آخرين رفضوا بشدة. ياسر ومنى قالا إنهما لن يقتربا من أي أشجار بعد الآن. هالة مترددة ثم قررت البقاء مع البذور والشتلات. في النهاية لم يبقَ سوى أربعة مستعدين للذهاب: ماهر، سارة، الشاب الذي يُدعى نادر، وامرأة هادئة اسمها ليلى (اسم جعل ماهر يشعر بوخزة قصيرة كلما سمعه).

قبل أن يتحركوا، اقترب كريم من ماهر وأمسك ذراعه:

— إذا لم تعودوا قبل سقوط الضوء... سأعتبر أنكم مُتّم. وسأفعل ما أستطيع لأبعد الباقين عن هذه الأشجار إلى الأبد.

ماهر نظر إلى يده ثم إلى وجهه.

— إذا لم نعد... فافعل ما تراه مناسبًا. لكن لا تبدأ حربًا لا تستطيع إنهاءها.

سارة كانت قد أعدت أربع قطع قماش مبللة لتغطية الأفواه إذا لزم الأمر، وماءً في قنينتين. لم يحملوا أي أداة حادة، كما طُلب منهم.

وقف الأربعة عند حافة المخيم. الأشجار ذات الهوائيات الأطول كانت ظاهرة في الجهة الغربية، تبدو كصف من الحراس الوردية الهادئة.

ماهر التفت إلى من تبقى خلفهم:

— سنعود. أو سنرسل خبرًا إن استطعنا. اعتنوا ببعضكم.

ثم سار في المقدمة.

سارة كانت إلى جانبه. نادر وليلى خلفهما مباشرة. مع كل خطوة كانت الهوائيات تتحرك ببطء لتتبعهم، كأنها ترافقهم أو تحصي خطواتهم.

المخيم خلفهم صغر تدريجيًا. والصوت الذي دعاهم لم يعد يتكلم.

لكن الحضور حوله كان أثقل من أي كلام.

الدعوة الثانية قُبلت.

والطريق إلى الحقيقة... كان قد بدأ.

الفصل 11

ورشة الكوكب

المشي استمر أقل من ساعة.

الأشجار ذات الهوائيات الأطول كانت ترشدهم فعلاً. كلما مالوا عن الطريق، تحركت الهوائيات في اتجاه التصحيح، كسهم حي. التربة تحت أقدامهم تغيرت تدريجيًا فأصبحت أكثر صلابة، وفي بعض الأماكن ظهرت صفائح معدنية رقيقة نصف مدفونة، كأنها بقايا عمل قديم.

ثم انفتح المكان فجأة.

كانت حفرة واسعة دائرية، قطرها يقارب المائة متر، محاطة بأشجار وردية كثيفة من كل جانب. في القاع كانت هناك طبقة من مادة داكنة لامعة، وفي الوسط نشاط لا يشبه أي شيء رأوه من قبل.

نباتات منخفضة ذات سيقان غليظة كانت تغرز أطرافها في التربة وتخرج كتلًا من خام معدني رمادي. نباتات أخرى أطول ذات أزهار مربعة الشكل كانت تمسك الكتل وتضعها فوق صفائح حجرية. ثم جاءت «نباتات اللهب».

كانت أقصر، ذات لون برتقالي محمر، ومن أطرافها كانت تنطلق ألسنة لهب قصيرة زرقاء-بيضاء شديدة الحرارة. كانت توجه اللهب بدقة نحو الخام حتى يذوب، ثم تترك النباتات الأخرى تشكل المعدن السائل في صفائح رقيقة وهي لا تزال ساخنة. نباتات رابعة ذات أغصان طويلة قوية كانت تطرق الصفائح بانتظام، كسندان حي، حتى تبرد وتستوي.

لا صوت بشري. لا أوامر مسموعة. فقط حركة متناسقة مستمرة، كأنها ورشة تعمل منذ آلاف السنين دون توقف.

ماهر توقف عند حافة الحفرة. سارة إلى جانبه، عيناها واسعتان. نادر وليلى تجمدا في مكانهما.

— هذا... مستحيل. همس نادر.

سارة قالت بصوت مبحوح:

— هم يصنعون المعدن. يصنعون الصفائح. هذه هي الطريقة التي بُنيت بها السفن.

أحد نباتات اللهب رفع طرفه نحوهم للحظة، وأطلق لسان لهب قصير كأنه تحية أو تحذير، ثم عاد إلى عمله. الهوائيات على الأشجار المحيطة كانت كلها موجهة نحو الأربعة البشر، تتابع كل حركة.

ماهر ركع على حافة الحفرة، يراقب العملية بتركيز عالم يرى فرضية تتحول إلى حقيقة أمام عينيه.

— يستخرجون الخام. يصهرونه. يشكلونه. يطرقونه. كل مرحلة تقوم بها... نبتة مختلفة. تخصص. تعاون. دقة.

ليلى همست:

— وأين العقل الذي يدير كل هذا؟ أين المصنع؟ أين الآلات؟

— هم الآلات. أجاب ماهر دون أن يرفع عينيه. وهم العمال. وهم المهندسون. الحياة النباتية هنا لم تبقَ في مرحلة الجذور والأوراق. تجاوزتها منذ زمن بعيد.

سارة جلست القرفصاء إلى جانبه.

— السفن التي أنقذتنا... بُنيت هنا. بهذه الطريقة. بأيدٍ... أو بأغصان لا تشبه الأيدي.

أحد النباتات الحاملة للخام توقف فجأة. ساقه ارتفعت قليلًا نحو الاتجاه الذي يقفون فيه، ثم عادت إلى العمل. كأنها لاحظت وجودهم، وقررت أن الاستمرار أهم.

الضوء الخافت المنتشر كان ينعكس على الصفائح المعدنية الجديدة فيعطيها لمعانًا باهتًا. رائحة المعادن الساخنة امتزجت برائحة التربة والأزهار الوردية. والصوت الوحيد كان صوت الطرق المنتظم، وصوت اللهب القصير وهو يلامس الخام.

ماهر شعر أن شيئًا داخل رأسه يعيد ترتيب نفسه.

كل ما عرفوه عن الذكاء، عن الحضارة، عن من يبني ومن يُبنى من أجله... كان ينهار بهدوء أمام هذه الورشة الحية.

سارة لمست ذراعه.

— هل ما زلت تعتقد أننا ضيوف؟

ماهر أجاب بعد صمت طويل:

— لا. أعتقد أننا... المواد الخام التالية. أو الشركاء. أو كلاهما معًا. والفرق بين الاثنين سيتضح قريبًا جدًا.

تحتهم استمرت الورشة في عملها الدؤوب.

فوقهم كانت الهوائيات تراقب.

وخلفهم كان الطريق إلى المخيم لا يزال مفتوحًا... لكنه لم يعد يبدو طريق عودة حقيقي.

الصدمة الأولى اكتملت.

والحقيقة الأكبر كانت لا تزال في الطريق.

الفصل 12

الحقيقة

بينما كانوا لا يزالون جاثمين على حافة الحفرة، جاء الصوت.

هذه المرة لم ينبعث من الهواء المحيط فقط. بدا كأنه يخرج من الأشجار نفسها، من الهوائيات، من الأوراق الوردية، من كل نبتة تعمل في الورشة تحتهم:

«الآن وقد رأيتم... حان وقت الفهم.»

توقف العمل في الحفرة للحظة قصيرة، كأن كل النباتات أصغت، ثم استأنفت نشاطها بهدوء.

الصوت استمر، واضحًا ودقيقًا:

«نحن الحياة المسيطرة على هذا الكوكب منذ آلاف الدورات بمقياس زمنكم. لسنا أشجارًا فقط. لسنا نباتات بالمعنى الذي تعرفونه. نحن شبكة واحدة واعية. كل جذر، كل هوائية، كل لهب... جزء من فكر أكبر.»

ماهر شعر بقلبه ينبض في أذنيه. سارة أمسكت ذراعه دون أن تدري.

«منذ زمن بعيد كانت هناك حياة حيوانية هنا أيضًا. لكن الحيوانات كانت تتغذى علينا. لم نستطع أن نسمح بذلك إلى الأبد. انقرضت. ومع انقراضها اختل التوازن. الأكسجين وثاني أكسيد الكربون لم يعودا في الدورة الصحيحة. بدأنا نضعف ببطء.»

الصوت توقف لحظة، ثم عاد:

«عرفنا بوجودكم على الكوكب الثالث منذ وقت طويل. كنا نسمع أفكاركم أحيانًا. راقبناكم. رأيتم سفننا وسميتموها أطباقًا طائرة. عندما شعرنا بموجات الدمار النووي... عرفنا أنكم فعلتم بأنفسكم ما فعلته حيواناتنا بنا منذ زمن. لكن بقي منكم ناجون. فأرسلنا السفن.»

نادر كان يرتجف.

— أنتم... النباتات؟ أنتم من بنى السفن؟ أنتم من تكلم معنا منذ البداية؟

«نعم. نباتات اللهب أعطتنا الدفع. النباتات المستخرجة للمعدن أعطتنا المادة. الشبكة كلها أعطتنا الإرادة. أحضرناكم لأننا نحتاج إلى حياة حيوانية من جديد. أنتم تنتجون ما نحتاجه. ونحن نعطيكم أرضًا ونصف كوكب وسلامًا لم تعرفوه في عالمكم.»

ليلى وضعت يديها على فمها. سارة كانت تحدق في أقرب هوائية وردية كأنها ترى وجهًا للمرة الأولى.

ماهر رفع صوته، مترددًا في البداية ثم أوضح:

— إذن نحن... لسنا ضيوفًا. نحن حل لمشكلتكم.

«أنتم شركاء في الحاجة. نحن لا نطلب منكم أن تكونوا عبيدًا. نطلب منكم أن تعيشوا، وأن تتكاثروا، وأن تبقوا داخل الحدود التي تحفظ التوازن. في المقابل... لن تموتوا على رماد عالمكم القديم.»

الصمت الذي أعقب ذلك كان أثقل من كل الصمت السابق.

نادر تراجع خطوة.

— هذا جنون. نحن بشر. نحن من يزرع النباتات، لا العكس. هذا... قلب لكل شيء.

سارة قالت بصوت منخفض لكنه حاد:

— هم أنقذونا. هم من يملك القوة هنا. وهم الآن يقولون الحقيقة. هل نرفضها لأنها تجرح كبرياءنا؟

ليلى كانت تبكي بصمت.

— على الأرض قتلنا بعضنا بعضًا بسبب من هو الأقرب إلى الله أو من يملك الأرض أو من يتبع أي كتاب. والآن... نكتشف أننا لسنا حتى الأذكى في هذا النظام الشمسي.

ماهر وقف ببطء. نظر إلى الورشة التي عادت إلى عملها المنتظم، ثم إلى الأشجار المحيطة، ثم إلى رفاقه الثلاثة.

— الحقيقة أمامنا. كاملة. هم النباتات. نحن الحيوان الذي احتاجوه. والحاجة متبادلة... حتى الآن. السؤال لم يعد «من هم؟». السؤال أصبح: ماذا سنفعل بهذه المعرفة؟

الهوائيات حولهم تحركت في موجة بطيئة واحدة، كأنها تنتظر الإجابة هي الأخرى.

تحتهم استمر طرق المعدن.

فوقهم استمرت الغيوم البرتقالية في حركتها الأبدية.

وبينهما وقف أربعة بشر صغار، يحملون فجأة وزن حقيقة أكبر منهم بكثير.

الحقيقة انكشفت.

والصدمة... كانت فقط البداية.

الفصل 13

الشقاق

عاد الأربعة إلى المخيم قبل أن يخفت الضوء.

الوجوه التي استقبلتهم كانت متعبة ومتوترة. كريم وقف في المقدمة، ذراعاه متقاطعتان. عندما أنهى ماهر سرد ما رأوه وما سمعوه، ساد صمت قصير ثقيل، ثم انفجر كل شيء.

كريم كان الأول:

— نباتات؟ نباتات تبنين سفن فضاء وتتحدث وتضع لنا شروط الحياة؟ هذا إما كذب أو إهانة. نحن بشر. نحن من سيطرنا على أرضنا... حتى دمرناها. والآن نأتي هنا لنكون... ماذا؟ ماشية تنتج لهم الغازات؟

نادر، الذي كان مع ماهر في الورشة، هز رأسه بعنف:

— رأيته بعيني. النباتات تطرق المعدن. النباتات تطلق اللهب. الصوت يخرج منها. ليست حكاية.

هالة جلست على الصندوق المعدني، يداها حول كيس البذور كأنها تحتمي به.

— إذا كانوا صادقين... فهم أنقذونا من الموت المحقق. وأعطونا نصف كوكب. هل نرفض لأن كبرياءنا مجروح؟

سارة دعمت ماهر بهدوء:

— الحاجة متبادلة. هم يحتاجوننا ونحن نحتاجهم. هذا ليس عبودية بالضرورة. هذا... تعايش مفروض علينا بسبب ما فعلناه بأنفسنا.

كريم ضحك ضحكة جافة ومؤلمة:

— تعايش؟ هم من يرسم الخطوط. هم من يرفض الأجساد الملوثة. هم من يضرب من يتجاوز. هم من يدعونا عندما يريدون ويكشفون الحقيقة عندما يناسبهم. هذا ليس تعايشًا. هذا سيطرة ناعمة. وأنا لن أقبل أن أكون الحيوان الأليف لنباتات.

ياسر، الذي ما زال يعاني من أثر الحاجز، رفع صوته:

— على الأرض قتلنا بعضنا بسبب من هو الأرقى: سني أو شيعي أو مسيحي أو يهودي، إسرائيلي أو باكستاني أو أمريكي أو روسي. والآن نأتي هنا لنكتشف أننا لسنا الأرقى أصلًا؟ أن شجرة وردية بـ«هوائيات» أذكى منا؟ هذا أكثر مما أحتمل.

ماهر كان يقف في وسط الدائرة الصغيرة. انتظر حتى هدأ الضجيج نسبيًا، ثم قال بصوت واطئ لكنه واضح:

— سؤال «من الأرقى» هو الذي أحرق أرضنا. كل طرف رأى نفسه أحق بالحياة والآخر يستحق المحو. النتيجة كانت رمادًا وإشعاعًا وملجأ يموت فيه الناس ببطء. الآن أمامنا كائنات مختلفة تمامًا تقول: نحن بحاجة إليكم وأنتم بحاجة إلينا. هل نكرر الخطأ نفسه ونرفض لأننا نريد أن نبقى في القمة... حتى لو كانت القمة قبرًا؟

كريم تقدم خطوة نحوه.

— أنت تتحدث كأنك أحدهم. كأنك نسيت أنك بشري. هل قبلت بالفعل أن تكون في مرتبة أدنى؟

ماهر نظر إليه مباشرة.

— أنا قبلت أن أبقى حيًا أولًا. المرتبة تأتي لاحقًا. وإذا كانت الحياة هنا تعني أن نشارك هذا الكوكب مع من هم أقدم وأقدر منا في بعض الأشياء... فأنا أفضل ذلك على أن أموت وأنا أصرخ بأنني الأرقى.

سارة أضافت:

— لم يطلبوا منا أن نسجد. طلبوا ألا نتجاوز الحدود، وأن نعيش، وأن نتكاثر. هذا أقل بكثير مما كان يطلبه أي طرف متطرف على الأرض قبل أن يضغط على الزر النووي.

الانقسام كان قد اكتمل.

من جهة: ماهر، سارة، هالة، وليلى. يميلون إلى التفاهم الحذر.

من جهة أخرى: كريم، ياسر، ومنى، واثنان آخران. يرفضون ما يرونه إذلالًا ومصيدة.

نادر بقي في المنتصف، صامتًا ومتذبذبًا.

الليل نزل تحت الغيوم البرتقالية. الأشجار الوردية حول المخيم حركت هوائياتها ببطء، كأنها تتابع الجدل دون أن تتدخل.

ماهر جلس وحيدًا بعد أن انفض الجمع. سارة جاءت وجلست إلى جانبه.

— الشقاق بدأ. قالت. وإذا تعمق... قد نصبح خطرًا على أنفسنا قبل أن نصبح خطرًا عليهم.

ماهر أخرج الصورة الصغيرة ونظر إليها في الضوء الخافت.

— على الأرض انشققتا حتى أفنينا العالم. هنا... إذا انشققنا مرة أخرى، قد لا يعطوننا فرصة ثانية.

في الظلام، بدت الهوائيات أقرب قليلًا من ذي قبل.

والصمت حول المخيم لم يعد صمت انتظار.

بل صمت من يراقب انقسام ضيوفه... ويحسب حسابه.

الفصل 14

الهدنة الهشة

في الصباح التالي لم ينتظروا أن يأتي الصوت من تلقاء نفسه.

ماهر وسارة وهالة وليلى وقفوا عند حافة صف الأشجار الوردية، بعيدًا قليلاً عن المخيم حتى لا يسمعهم الرافضون بوضوح. ماهر رفع رأسه نحو أقرب هوائية وتكلم بصوت هادئ وواضح:

— نحن نسمعكم. ونفهم ما قلتم. بعضنا يقبل فكرة التعاون. بعضنا يرفضها. نحن لسنا جسدًا واحدًا مثلكم. لكن الذين يقفون هنا الآن... مستعدون للحوار. ما الذي تريدونه منا بالضبط، وما الذي تضمنونه في المقابل؟

لعدة ثوانٍ لم يحدث شيء. ثم تحركت الهوائيات في موجة بطيئة متزامنة، والصوت جاء هذه المرة أقرب وأهدأ:

«نريد أن تعيشوا. أن تتكاثروا. أن تبقوا داخل الحدود التي تحفظ التوازن لنا ولكم. أن تزرعوا ما شئتم من نباتاتكم في المناطق المخصصة، دون أن تلمسوا شبكتنا. في المقابل... نمنحكم الحماية من الجوع والعطش، ونفتح لكم مساحات أوسع تدريجيًا، ونترككم تديرون شؤونكم الداخلية كما تريدون... طالما لم تهددوا الدورة.»

سارة سألت:

— وإذا رفض بعضنا؟ إذا حاولوا كسر الحدود أو إيذاء شبكتكم؟

«سنمنعهم كما منعنا من سبقوهم. دون قتل إن أمكن. بالقوة إن لزم. نحن لا نرغب في حرب. لكننا لن نسمح بتكرار ما حدث لحيواناتنا القديمة، ولا ما حدث لعالمكم.»

هالة قالت بصوت منخفض:

— هل نكون شركاء... أم مجرد أدوات؟

الصوت تردد لحظة قبل أن يجيب:

«الشركاء يحتاجون إلى بعضهم. الأدوات تُستبدل. أنتم الآن شركاء في الحاجة. المستقبل يعتمد على ما تفعلونه أنتم.»

عادوا إلى المخيم. نقل ماهر مضمون الحوار بهدوء. كريم استمع واقفًا، وجهه حجرًا.

— إذن هم يسمحون لنا بالعيش... بشرط أن نبقى في القفص الذي رسموه. وأنا يفترض أن أشكرهم؟

— أنت حر في أن ترفض. قال ماهر. لكنك لست حرًا في أن تجرّ الجميع إلى مواجهة لا نستطيع الفوز بها. نحن أقلية صغيرة على كوكب يملكونه بالكامل.

ياسر بصق على التربة.

— هدنة مذلة.

سارة ردت بثبات:

— هدنة تبقي لنا حياة. وهذا أكثر مما تركناه لأنفسنا على الأرض.

الانقسام لم يختفِ. لكنه هدأ إلى حالة من التعايش القلق داخل المخيم نفسه. الرافضون ابتعدوا قليلاً ونصبوا مظلتهم الخاصة. الموافقون بقوا قرب السفينة والشتلات. نادر كان ينتقل بين الطرفين دون أن ينحاز تمامًا.

في المساء وقف ماهر وسارة ينظران إلى الأشجار. الهوائيات كانت تتحرك ببطء معتاد، لكن أحدهما أقسم أنه شعر بأنها أصبحت أقل عدائية... أو أكثر ترقبًا.

— هل نجحنا؟ سألت سارة.

— نجحنا في تأجيل الانفجار. أجاب ماهر. الهدنة قائمة. لكنها هشة. هم يراقبون. ونحن نراقب أنفسنا. وأي خطأ من أي طرف... قد يعيدنا إلى الرماد من جديد.

تحت الغيوم البرتقالية الكثيفة، بدا المخيم الصغير كنقطة ضوء ضعيفة في عالم شاسع وواعٍ. الأشجار حولهم لم تنم. والبشر داخل المظلات لم يناموا بسهولة.

التعايش أصبح ممكنًا.

لكنه كان مبنيًا على حاجة متبادلة، وخوف متبادل، وشكوك لم تُحسم بعد.

الجزء الثاني انتهى هنا.

على حافة هدنة... قد تصمد.

أو قد تنكسر مع أول عاصفة.

انتهى الجزء الثاني: الاكتشاف

الفصل الرابع عشر يغلق الجزء الثاني عند نقطة التوازن الهش بين القبول والرفض، مع بقاء التوتر تحت السطح.

الفصل 15

الحدود الجديدة

بعد ثلاثة أيام من الهدنة، تحركت الأشجار.

في الصباح وجد السكان أن صفًا من الأشجار الوردية قد تراجع مسافة تقارب الخمسين مترًا في الجهة الشمالية، تاركًا مساحة جديدة من التربة المكشوفة. الهوائيات كانت لا تزال موجهة نحو المخيم، لكنها بدت أقل كثافة. ثم جاء الصوت، هادئًا ومباشرًا:

«هذه مساحة إضافية. يمكنكم زراعتها وبناء ما تحتاجون. الحدود الجديدة واضحة. لا تتجاوزوها. سنراقب.»

لم يكن هناك احتفال. فقط شعور مختلط بالراحة والحذر.

ماهر وسارة وهالة وليلى بدأوا العمل فورًا. قسموا المساحة الجديدة: جزء للزراعة، وجزء لمأوى أفضل، وجزء لتخزين ما تبقى من المخزون. استخدموا الصناديق المعدنية وبقايا أقمشة وقطعًا من السفينة لبناء مظلات أكثر ثباتًا. هالة أعادت زرع البذور في التربة الجديدة، هذه المرة بصفوف منتظمة، وراقبتها بعناية.

كريم وأنصاره لم يقتربوا من المساحة الجديدة في البداية. بقوا في طرف المخيم القديم، يتحدثون بأصوات منخفضة. ياسر كان يرسم خطوطًا على التربة بعصا، كأنه يخطط لشيء.

في اليوم الرابع جاءت قواعد أوضح. الصوت عاد في منتصف العمل:

«الماء من الجدول مسموح. لا تلوثوه. لا تقطعوا أي نبتة محلية حتى لو بدت ميتة. لا تشعلوا نارًا مفتوحة قرب الشبكة. أي أداة حادة تُستخدم فقط داخل مساحتكم. إذا احتجتم شيئًا... اطلبوا.»

سارة نظرت إلى ماهر بعد أن انتهى الصوت.

— يطلبون منا أن نطلب. كأنهم يختبرون إن كنا سنبقى داخل القفص طواعية.

— أو كأنهم يحاولون أن يجعلوا القفص يبدو كبيت. أجاب ماهر وهو يزرع وتدًا خشبيًا. الفرق سيتضح مع الوقت.

الروتين بدأ يتشكل ببطء. يستيقظون مع ازدياد الضوء الخافت، يعملون في الحقل أو البناء، يأكلون من المحصول الأول الهزيل والمكعبات التي لا تزال تظهر بطريقة ما قرب السفينة، ثم يجتمعون في المساء حول ضوء ضعيف. الموافقون يتحدثون عن خطط طويلة الأمد. الرافضون يجلسون بعيدًا، ينظرون إلى الأشجار كأنهم ينتظرون خطأ منها.

في الليلة السادسة، اقترب كريم من ماهر بينما كان الأخير يفحص الشتلات.

— أنت تبني لهم مستعمرة مرتبة. قال بصوت منخفض. كل وتد تزرعه، كل صف بذور... يجعلهم أكثر راحة في السيطرة.

ماهر لم يرفع رأسه فورًا.

— أنا أبني لنا مكانًا نعيش فيه. إذا كان ذلك يجعل الهدنة أطول... فليكن. أنت حر في أن تبني شيئًا آخر، أو لا تبني شيئًا. لكن لا تفسد ما يبقي الجميع على قيد الحياة.

كريم ظل واقفًا لحظة، ثم ابتعد دون رد. في الظلام بدت هوائيات الأشجار تتحرك باتجاهه قليلاً قبل أن تعود إلى إيقاعها المعتاد.

سارة جاءت لاحقًا وجلست إلى جانب ماهر.

— الحدود الجديدة أوسع... لكنها ما زالت حدودًا. وأصحابها لم يختفوا. هم فقط أبعدوا صف الأشجار مترات قليلة.

ماهر نظر إلى المساحة التي امتدت أمامهم، ثم إلى الضوء الخافت في طرف المخيم حيث يجلس الرافضون.

— أعرف. الهدنة ليست سلامًا. هي مجرد مساحة تنفس. وما زلنا لا نعرف كم ستدوم قبل أن يقرر أحد الطرفين أنها لم تعد كافية.

فوقهم كانت الغيوم البرتقالية تتحرك ببطء أبدي.

تحتهم كانت التربة الجديدة تنتظر البذور.

وبين الطرفين البشريين، وبين البشر والشبكة النباتية، كانت الحدود الجديدة قائمة...

هشة، واضحة، ومراقبة من كل الجهات.

الفصل 16

الجذور والأيادي

بعد أسبوعين من الهدنة، قرر ماهر أن يجرب.

اختار شجرة وردية قريبة من الحدود الجديدة، ليست من الأطول ولا من الأقصر. جلس أمامها على مسافة مترين، يدين مفتوحتين على ركبتيه، وتكلم بصوت هادئ كمن يخاطب شخصًا حقيقيًا:

— إذا كنتم شبكة واحدة... فهل تسمعونني الآن كفرد، أم كصدى داخل الكل؟ هل يمكنكم أن تروني لا كمجموعة بشرية، بل كـ«ماهر»؟

لعدة دقائق لم يحدث شيء. ثم تحركت هوائية واحدة ببطء شديد نحو اتجاهه، وتوقفت. الصوت جاء خافتًا هذه المرة، كأنه موجة داخلية أكثر من كونه كلامًا في الهواء:

«نسمع الاهتزازات. نسمع الأفكار عندما تكون قوية. الاسم الذي تقوله... مسجل الآن في الشبكة. أنت لست فقط «أحدهم». أنت نغمة مختلفة.»

ماهر شعر بقشعريرة. سارة، التي كانت تراقب من بعيد، اقتربت وجلست إلى جانبه.

في الأيام التالية كررا التجربة. هالة انضمت إليهما. كانوا يسألون أسئلة بسيطة أولاً: عن الوقت، عن الطقس، عن كيفية انتقال المعرفة بين النباتات البعيدة. الإجابات كانت تأتي متقطعة، قصيرة، وأحيانًا متأخرة ساعات، كأنها تمر عبر طبقات كثيرة قبل أن تصل.

ثم جاء الاكتشاف الأكبر مصادفة.

بينما كانت هالة تزرع صفًا جديدًا، لمست يدها جذرًا رفيعًا أبيض ينبثق من التربة قرب شتلة القمح. في اللحظة نفسها شعرت بشيء يشبه نبضة خفيفة في راحة يدها، ثم صورة سريعة جدًا في ذهنها: صف من الأشجار الوردية في مكان بعيد، ضوء برتقالي، ورائحة مطر.

سحبت يدها بسرعة وصرخت. ماهر وسارة ركضا إليها. عندما وصفت ما حدث، طلب ماهر منها أن تعيد اللمس بحذر.

هذه المرة ركز الثلاثة. عندما لمست هالة الجذر مرة أخرى، انتقلت النبضة إلى ماهر الذي كان يلمس كتفها، ثم إلى سارة. لم تكن كلمات. كانت إحساسًا جماعيًا قصيرًا: رطوبة التربة في جهة أخرى من الكوكب، اهتزاز خفيف لخطوات كائن غير بشري بعيد، وشعور بالانتماء إلى شبكة واسعة لا تنام.

انسحبوا جميعًا في الوقت نفسه.

— الجذور. همس ماهر. هم يتواصلون عبر الجذور. والإحساس الجماعي... حقيقي. لسنا نتكلم مع شجرة واحدة. نحن نلمس طرف شبكة هائلة.

سارة كانت تتنفس بسرعة.

— للحظة... شعرت أنني لست فقط أنا. كأن حدودي امتدت.

في الليلة التالية عاد الصوت من تلقاء نفسه، أوضح من المعتاد:

«الآن لمستم الطبقة الأولى. الشبكة تحس بكل ما يلمس جذورها. نحن لا نفكر كما تفكرون أنتم... واحدًا واحدًا. نحن نفكر معًا. لكننا بدأنا نميز نغماتكم. بعضكم أصبح مألوفًا.»

ماهر رفع رأسه نحو الظلام البرتقالي.

— هل يمكن أن نتعلم نحن أيضًا أن نسمع بعضنا بهذه الطريقة؟

«ربما. مع الوقت. إذا بقيتم. الجذور لا تُفتح دفعة واحدة. تحتاج إلى ثقة... وحاجة متبادلة أعمق.»

في الصباح التالي لاحظوا شيئًا جديدًا. شتلات القمح التي زرعتها هالة نمت أسرع من المعتاد، وأوراقها بدت أكثر قوة. والتربة حولها كانت رطبة رغم عدم سقيها منذ يومين.

كأن الشبكة... بدأت تساعد على طريقتها.

كريم راقب كل ذلك من بعيد، وجهه متجهمًا. عندما مرّ ماهر قربه قال بصوت منخفض:

— أنتم تتعلمون كيف تكونون جزءًا منهم. بعد قليل لن تعرفوا أين ينتهي الإنسان وأين تبدأ الشجرة.

ماهر توقف.

— أو نتعلم كيف نعيش دون أن نحتاج إلى تدمير ما يختلف عنا. هذا درس لم نتعلمه على الأرض.

الدهشة كانت حقيقية. والاختراق كان جزئيًا وهشًا.

لكن لأول مرة منذ الهبوط، شعر ماهر وسارة وهالة أن الحاجز بين النوعين لم يعد جدارًا مصمتًا.

بل أصبح غشاءً رقيقًا... يمكن أن يمر من خلاله شيء يشبه الفهم.

والشبكة النباتية، من جهتها، بدت كأنها تنتظر لترى إن كان البشر قادرين على لمس الجذور دون أن يحاولوا اقتلاعها.

الفصل 17

الشقوق

الشقوق بدأت تظهر في الصمت أولاً.

كريم وأنصاره — ياسر ومنى ورجلان آخران — أصبحوا يقضون معظم الوقت بعيدًا عن المساحة الجديدة. يتحدثون ليلاً بأصوات منخفضة، يتوقفون فجأة كلما اقترب أحد الموافقين. في أحد الأيام لاحظت سارة أن ياسر يخفي شيئًا تحت مظلته: قطعًا معدنية حادة جمعها من بقايا السفينة، وشرائط قماش طويلة.

عندما واجهها ماهر بها، ابتسم كريم ابتسامة باردة.

— أدوات للبقاء. لا أكثر. أنتم تبنون بيتًا مشتركًا مع الأشجار. نحن نبني خيارًا آخر... في حال انهارت الهدنة.

ماهر لم يقتنع. لكنه لم يكن يملك دليلًا كافيًا لمنعهم بالقوة. المجموعة صغيرة جدًا، وأي مواجهة داخلية قد تدمر ما تبقى من تماسكهم.

الحادث وقع في الليلة الرابعة بعد هذا اللقاء.

خرج ياسر ومنى في الظلام، متجاوزين الحدود الجديدة بحذر هذه المرة. لم يحاولا عبور الحاجز بالقوة. بدلاً من ذلك، صبّا سائلًا زيتيًا أحضراه من مخلفات السفينة حول جذور شجرتين ورديتين قريبتين، ثم أشعلا النار في قطعة قماش وألقياها.

اللهب كان صغيرًا في البداية. ثم اشتعل فجأة بشكل غير طبيعي، كأن النباتات نفسها ردت بمادة داخلية قابلة للاشتعال. صرخات قصيرة خرجت من الجهة الغربية للمخيم. ماهر وسارة ركضا معًا.

وجدوا الشجرتين تحترقان بلهب أزرق-أخضر غريب، وياسر ومنى يحاولان التراجع بسرعة. قبل أن يصلوا إليهما، ارتفع الحاجز غير المرئي فجأة حول المنطقة المشتعلة، ودفع الرجلين إلى الخلف بقوة أسقطتهما على التربة.

الصوت جاء هذه المرة غاضبًا، أو أقرب ما يكون الغضب في نبرة غير بشرية:

«هذا نقض. النار على شبكتنا. الحدود لم تعد كافية.»

الأشجار حول المخيم كله حركت هوائياتها في موجة عنيفة واحدة. التربة اهتزت قليلاً. وفي المساحة الجديدة، ذبلت فجأة عشرات الشتلات التي زرعتها هالة، كأن الحياة سُحبت منها في Instant.

ماهر رفع يديه عاليًا وسار نحو أقرب صف من الأشجار، متجاهلاً خطر الحاجز.

— هذا لم يكن قرار الجميع! هؤلاء تصرفوا وحدهم. نحن لم نوافق. امنحونا وقتًا لنصلح ما فعلوه.

سارة انضمت إليه، صوتها مرتفع وواضح:

— لا تعاقبوا الجميع بخطأ البعض. الهدنة ما زالت قائمة من جهتنا. ساعدونا نحتوِي هذا قبل أن ينفجر أكثر.

لعدة لحظات بدا أن الشبكة لن تستجيب. اللهب على الشجرتين استمر، والشتلات الميتة بقيت ذابلة. ثم جاء الصوت، أبرد من أي مرة سابقة:

«الخطأ سُجّل. الأفراد الذين أشعلوا النار... ممنوعون من الاقتراب من أي حدود جديدة. أي تكرار... سيُقابل بإغلاق المساحات المفتوحة كلها. وأعادوا ما أخذتموه من التربة.»

اللهب انطفأ فجأة كأنه شُفط إلى الداخل. الشجرتان بقيتا محروقتين وسوداوين، لكن النار لم تنتشر. ياسر ومنى كانا لا يزالان على الأرض، يرتجفان من الصدمة أكثر من الألم.

كريم وصل متأخرًا. نظر إلى الشجرتين المحروقتين، ثم إلى ماهر، وقال بصوت منخفض لا يسمعه إلا هو:

— رأيت؟ حتى عندما نحاول فقط... هم يقررون من يُعاقب وكيف. هذا ليس تعايشًا. هذا حكم.

ماهر التفت إليه بعينين باردتين.

— وأنت أوصلتنا إلى حافة معاقبة الجميع. إذا كنت تريد حربًا مع شبكة تغطي كوكبًا كاملًا... فافعلها وحدك. لا تجرّ الباقين معك.

سارة كانت تساعد هالة على فحص الشتلات الميتة. بعضها بدا قابلًا للإنقاذ إذا أُعيد زرعه بسرعة. معظمها لا.

في تلك الليلة لم ينم أحد بسهولة. الرافضون انسحبوا أبعد. الموافقون جلسوا قرب المساحة الجديدة كمن يحرس ما تبقى. والأشجار... الأشجار كانت أكثر صمتًا من المعتاد، وهوائياتها موجهة كلها نحو المخيم كأسلحة جاهزة.

الشقوق اتسعت.

والأزمة لم تنتهِ.

هي فقط... أُجّلت مرة أخرى، بثمن أوضح هذه المرة.

ماهر نظر إلى سارة في الظلام وقال:

— في المرة القادمة... قد لا يعطوننا فرصة للتحدث.

هي أمسكت يده بقوة.

— إذن يجب ألا تكون هناك مرة قادمة.

لكن كلاهما كان يعرف أن الشقوق، متى ظهرت، نادرًا ما تُغلق تمامًا.

الفصل 18

الثمن

في الصباح التالي كان الثمن ينتظرهم.

المساحة الجديدة التي فُتحت قبل أسابيع اختفت. صف الأشجار الوردية عاد إلى مكانه السابق، بل تقدم أمتارًا إضافية نحو المخيم. الشتلات التي نجت من الليلة السابقة ذبلت كلها هذه المرة. الجدول الصغير الذي كانوا يأخذون منه الماء جف فجأة، كأن الجذور سحبته إلى الأعماق. والمكعبات الغذائية التي كانت تظهر قرب السفينة... توقفت.

الصوت جاء مع أول ضوء خافت، باردًا وقاطعًا:

«الخطأ تكرر رغم التحذير. المساحات الإضافية أُغلقت. الموارد الإضافية أُوقفت. الأفراد الذين أشعلوا النار... يُعزلون. أي محاولة جديدة للنار أو تجاوز... ستُقابل بإغلاق آخر. الهدنة لم تنتهِ بعد. لكنها أصبحت أضيق.»

كريم وقف ينظر إلى الأشجار التي اقتربت، وجهه متجهمًا.

— ها هو الثمن. قالوا «شركاء»... والآن يعاقبوننا جماعيًا. حتى الذين لم يفعلوا شيئًا.

ياسر ومنى كانا جالسين على الأرض، منفصلين عن الباقين بمسافة فرضتها النباتات نفسها. كلما حاولا الاقتراب من المخيم الرئيسي، كان الحاجز غير المرئي يدفعهما بلطف حازم إلى الوراء.

ماهر جمع الموافقين حوله. الوجوه شاحبة. المخزون المتبقي يكفي أيامًا قليلة فقط.

— هم يختبروننا. قال. هل ننقسم أكثر، أم نتحمل الثمن معًا ونثبت أن الغالبية ما زالت تريد الهدنة؟

سارة كانت عملية أكثر.

— الماء أولًا. إذا لم نحصل على مصدر بديل خلال يومين... سنبدأ في الانهيار. والطعام بعد ذلك.

هالة اقترحت محاولة التواصل مرة أخرى عبر الجذور، كما فعلوا من قبل. ركعوا عند أقرب شجرة خارج الخط الجديد، لمسوا التربة بحذر. النبضة جاءت هذه المرة ضعيفة ومترددة، كأنها إشارة بعيدة:

«الثقة تضررت. الإصلاح يحتاج إلى وقت... وأفعال لا كلام.»

في المساء انفجرت المواجهة.

كريم تقدم نحو ماهر أمام الجميع، صوته مرتفع هذه المرة:

— إلى متى نستمر في دفع ثمن صبرك؟ هم يغلقون الأرض والماء والطعام متى شاؤوا. وأنت ما زلت تتحدث عن توازن وهدنة. قل لهم إننا لن نقبل العزل والعقاب الجماعي. أو تنحَّ واترك من يستطيع أن يرفض... يرفض.

ماهر نظر إليه طويلاً. خلف كريم كان ياسر ومنى ينظران بأمل غاضب. أمامه كانت سارة وهالة وليلى ونادر ينتظرون كلمته.

ثم قال بهدوء، لكن بصوت يسمعه الجميع:

— إذا رفضنا الآن بالقوة التي نملكها... وهي لا شيء... فسنموت كلنا خلال أسابيع. النباتات لا تحتاج إلى قتلنا. يكفي أن تسحب الماء والطعام والمساحة. أنا لن أقودنا إلى انتحار جماعي باسم الكبرياء. سأفاوض. سأطلب إعادة الموارد تدريجيًا. وسأطلب أن يُرفع العزل عن ياسر ومنى إذا تعهدوا علنًا بعدم تكرار ما فعلوه.

التفت إلى كريم مباشرة:

— أما أنت... فحر في أن تأخذ من يتبعك وتحاول عبور الحاجز أو إشعال نار أخرى. لكنك لن تجرّ الباقين معك. هذا قراري كمن يحاول إبقاء أكبر عدد ممكن على قيد الحياة.

كريم حدق فيه، ثم بصق على التربة قرب قدميه.

— لقد اخترت جانبهم. تذكر هذا اليوم.

انسحب مع أنصاره إلى الطرف البعيد. ياسر ومنى بقيا في عزلتهما المفروضة، لكنهما لم يرفضا العرض.

في تلك الليلة وقف ماهر وحده أمام صف الأشجار. رفع يديه وقال بصوت واضح:

— الثمن دُفع. الخطأ لن يتكرر من جهتنا. أعدوا لنا الماء والطعام تدريجيًا. ارفعوا العزل إذا حصلتم على تعهد. أظهروا أن الهدنة ما زالت ممكنة... كما أظهرنا نحن أننا قادرون على محاسبة أنفسنا.

لساعات لم يأتِ رد. ثم تحركت هوائية واحدة ببطء، والصوت جاء خافتًا:

«الطلب سُجّل. المراقبة مستمرة. النتيجة... تعتمد على الأيام القادمة.»

ماهر عاد إلى المظلة. سارة كانت مستيقظة.

— هل خسرت جزءًا من رفاقك إلى الأبد؟ سألته.

— ربما. أجاب. لكنني لم أخسر الجميع بعد. وهذا... هو أقصى ما أستطيعه الآن.

خارج المخيم، كانت الأشجار أقرب من أي وقت مضى.

والحدود أصبحت أضيق.

والثمن... كان لا يزال يُدفع في الظلام، قطرة ماء وشتلة ميتة ورفقة مكسورة في كل مرة.

الهدنة لم تنكسر تمامًا.

لكنها أصبحت أرق من ورقة، وأثقل من جبل.

الفصل 19

النمو

مرت أشهر.

الضوء الخافت تحت الغيوم البرتقالية أصبح مقياس الزمن الوحيد. الفصول هنا لم تكن واضحة، لكن النباتات البشرية بدأت تتكيف. القمح نضج أخيرًا في المساحة التي أُعيد فتحها تدريجيًا بعد أسابيع من الالتزام الهادئ. الفول أعطى محصولًا متواضعًا. هالة بكت يوم الحصاد الأول، لا من الحزن بل من الإرهاق والأمل المخلوط.

الماء عاد إلى الجدول ببطء. المكعبات الغذائية ظهرت من جديد، لكن بكميات أقل، كأنها تذكير مستمر بأن الموارد ليست مضمونة إلى الأبد. ماهر وسارة ونادر وليلى عملوا بلا انقطاع. الروتين اليومي تماسك: استيقاظ، عمل في التربة، فحص الحدود، حوار قصير مع الشبكة عبر الجذور أو الصوت، ثم نوم حذر.

ثم جاءت العلامة الأهم.

سارة قالت لماهر في ليلة هادئة، بينما كانا يجلسان قرب الحقل:

— أنا حامل.

الكلمة سقطت بينهـما بسيطة وثقيلة في آن واحد. ماهر نظر إليها طويلاً، ثم وضع يده على بطنها التي لا تزال مسطحة. لم يتكلما كثيرًا في تلك الليلة. لكن في الصباح علمت هالة وليلى، وانتشر الخبر بهدوء داخل الطرف الموافق.

الصوت النباتي جاء بعد يومين، للمرة الأولى بنبرة مختلفة قليلًا:

«حياة جديدة. هذا جيد للشبكة. الجنين سيُحسب ضمن الدورة. سنعدل البيئة حوله تدريجيًا.»

كأنهم كانوا ينتظرون هذه اللحظة منذ وصول السفينة الأولى.

التقارب مع الشبكة أصبح أكثر حذرًا وواقعية. ماهر وهالة صارا يلمسان الجذور بانتظام، لا للحصول على صور بعيدة، بل لطلب تعديلات صغيرة: رطوبة أكثر في زاوية معينة، حماية من حشرة غريبة ظهرت فجأة، تأخير في ذبول أوراق نبتة بشرية. أحيانًا كانت الشبكة تستجيب. أحيانًا تتجاهل. لكن الحوار لم يعد أحادي الجانب تمامًا.

كريم وأنصاره كانوا قد اختفوا تقريبًا من المشهد اليومي. بعد حادثة النار والعقاب، انسحبوا إلى أقصى طرف من المنطقة المسموح بها. بنوا مظلتهم الخاصة، ورفضوا مشاركة المحصول أو الاجتماعات. ياسر ومنى رفع عنهما العزل بعد أن تعهدا علنًا أمام الأشجار، لكنهما اختارا البقاء مع كريم.

في أحد الأيام، اقترب كريم من ماهر للمرة الأخيرة.

— نحن راحلون. قال دون مقدمات. غدًا عند خفوت الضوء. لن نأخذ إلا ما نحمل. لا نريد نصيبًا من قمحكم ولا من هدتكم.

ماهر نظر إليه.

— إلى أين؟ الحاجز يحيط بنا من كل الجهات. وخارج الحدود... لا نعرف ماذا ينتظر.

— إذن نموت ونحن نحاول. أفضل من أن نموت ونحن نزرع لأشجار تقرر متى تشرب ومتى تجوع. أنت اخترت طريقك. نحن اخترنا طريقنا.

لم يطلب ماهر منه البقاء. لم يحاول إقناعه. فقط مد يده. كريم نظر إليها لحظة، ثم تجاهلها ومشى.

في الليلة التالية اختفوا. لم يُسمع صوت حاجز ولا صراخ. فقط غياب. سارة قالت بهدوء:

— ربما وجدوا ثغرة. أو ربما انتظرتهم الشبكة في مكان آخر. لن نعرف.

ماهر لم يرد. كان ينظر إلى بطن سارة، ثم إلى الحقل الذي بدأ يعطي ثماره، ثم إلى الأشجار الوردية التي تتحرك هوائياتها ببطء معتاد.

النمو كان حقيقيًا.

المحاصيل. الحمل. الروتين. الحوار الحذر مع الشبكة.

لكنه كان نموًا محاطًا بغياب جديد، وبحدود لا تزال قائمة، وبمعرفة أن أي خطأ قد يعيد كل شيء إلى الصفر.

تحت السماء البرتقالية، كان المجتمع الصغير يتنفس.

أضيق مما تمنى.

وأقوى مما كان عليه في أيام الرماد الأولى.

والوقت... كان يمر.

الفصل 20

السماء البرتقالية

مرت سنة كاملة.

أو ما حسبوه سنة بحسب دورات نمو القمح وازدياد الضوء الخافت ثم نقصانه تحت الغيوم الأبدية. سارة كانت في شهرها الأخير. بطنها مستدير وثقيل، وحركاتها أبطأ، لكنها كانت تقف كل صباح أمام الحقل تنظر إلى السنابل كأنها تتأكد أنها حقيقية.

المخيم لم يعد مخيمًا. أصبح قرية صغيرة: مظلات ثابتة أكثر، سياج منخفض من أغصان ميتة سمحوا لهم بجمعها، مخزن للحبوب، وركن للأدوات. عددهم الآن تسعة فقط بعد رحيل كريم وأنصاره. نادر تزوج ليلى في مراسم بسيطة أمام الأشجار، كأنهم يحتاجون إلى شاهد غير بشري. هالة أصبحت المسؤولة الأولى عن الزراعة. ماهر... أصبح الرجل الذي يتحدث إلى الشبكة.

في مساء هادئ، جلس ماهر وسارة على تلّة ترابية صغيرة صنعوها بأيديهما لتكون نقطة مراقبة. السماء البرتقالية فوقهما كانت كثيفة كالعادة، لكن في تلك الساعة بدت أخف قليلًا، كأنها تسمح بمرور ضوء أبعد.

سارة وضعت يدها على بطنها.

— يتحدثون عنه كأنه جزء من الدورة. الجنين. يقولون «سيُحسب». هل نحن نبني حياة... أم نمدد شبكتهم فقط؟

ماهر كان ينظر إلى صف الأشجار البعيد.

— الاثنان معًا ربما. على الأرض كنا نبني ونهدم في الدورة نفسها. هنا البناء أبطأ... والهدم أخطر. لكننا ما زلنا نحن. ما زلت أرى وجه ليلى وندى عندما أغمض عيني. ما زلت أغضب. ما زلت أخاف. ما زلت أحلم بأرض زرقاء وسماء مفتوحة.

— وأنا أيضًا. قالت. لكنني لم أعد أحلم بالعودة. الحلم أصبح... أن يولد هذا الطفل ولا يعرف الرماد. أن يعرف التربة والطعم الحقيقي للقمح وصوت الشبكة عندما تهمس. هل هذا خيانة لما كنا؟ أم نجاة؟

ماهر أمسك يدها.

— لا أعرف إن كنا تغيرنا بما يكفي. ما زال فينا الكبرياء الذي أحرق العالم. ما زال فينا الخوف من أن نكون في مرتبة أدنى. لكننا تعلمنا شيئًا لم نكن نعرفه: أن البقاء أحيانًا يعني أن تشارك القوة، لا أن تملكها كلها. الشبكة لم تطلب منا أن ننساها. طلبت ألا نحرقها. وهذا... أكثر مما فعلناه مع بعضنا بعضًا على الأرض.

سارة أسندت رأسها إلى كتفه.

— هل تعتقد أنهم يفهمون ما يعنيه الطفل لنا؟ أكثر من كونه «جزءًا من الدورة»؟

— أعتقد أنهم يفهمون الحاجة. والحاجة هي اللغة الوحيدة التي نجحت بيننا حتى الآن. الباقي... قد يأتي مع الوقت. أو لا يأتي. لكن الطفل سيولد تحت هذه السماء البرتقالية، لا تحت سماء مسمومة. وهذا فرق يكفي لأبدأ من جديد كل صباح.

في الأفق البعيد، تحركت هوائيات الأشجار في موجة بطيئة واحدة، كأنها تشاركهما الصمت. الصوت لم يأتِ هذه المرة. لم يكن بحاجة إلى كلمات.

ماهر رفع عينيه نحو الغيوم الكثيفة.

— سماء برتقالية. لا زرقاء. لا نجوم واضحة. لا قمر. لكنها السماء التي قبلتنا بعد أن رفضنا أرضنا بأنفسنا. ربما هذا هو الدرس كله: لسنا مركز كل شيء. ولم نعد وحدنا في القصة.

سارة ضغطت على يده.

— والقصة لم تنتهِ بعد.

— لا. أجاب. هي فقط... تغيرت لغتها.

تحت السماء البرتقالية، كان الحقل ينتظر الحصاد التالي.
والبطن ينتظر الولادة.
والشبكة تنتظر... كما انتظرت آلاف الدورات من قبل.

والبشر التسعة المتبقون كانوا لا يزالون بشرًا.
تغيروا بما يكفي ليبقوا.
ولم يتغيروا بما يكفي لينسوا من كانوا.

وهذا... كان كافيًا لتلك الليلة.

فصل إضافي
(يُدرج قبل الفصل الختامي)
اللحم والجذور

الليلة كانت أكثر دفئًا من المعتاد تحت السماء البرتقالية.

الضوء الخافت داخل البيت الطيني الذي يشارك فيه ماهر وهالة كان يأتي من مصباح صغير يعمل على طاقة الشبكة النباتية. الأطفال ناموا في البيت المجاور مع سارة. الباب أُغلق. والستارة المصنوعة من ألياف نباتية أُسدلت.

هالة كانت قد خلعت ثوبها بالفعل. جسدها النحيل المكتنز في الأماكن الصحيحة وقف عاريًا أمام ماهر: نهداها متوسطا الحجم، حلمتاهما ورديتان ومنتصبتان من البرودة والإثارة، بطنها مسطح رغم السنوات، وشعر عانتها الأسود الكثيف يختبئ بين فخذيها الممتلئين قليلًا. ماهر اقترب من خلفها، يديه الكبيرتين تلفان خصرها، ثم تصعدان لتمسك نهديها وتعصرهما بقوة.

— الليلة أريدكِ كلها... قال بصوت أجش قرب أذنها.

هالة أرنت ومالت برأسها إلى الخلف. ماهر عضّ رقبتها ثم نزل بفمه إلى كتفها، بينما أصابعه تفرك حلمتيها بقسوة لذيذة. يدها امتدت إلى الخلف وأمسكت قضيبه المنتصب من خلال القماش، وجدته صلبًا وسميكًا ونابضًا. أدارت جسدها وركعت أمامه دون كلام.

أخرجت قضيبه. كان غامق اللون، عروقُه بارزة، ورأسه لامع من الإثارة. أخذته في فمها دفعة واحدة حتى وصل إلى حلقها، وعيناها تدمعان من العمق. ماهر أمسك رأسها بيديه وبدأ يدفع ببطء ثم أسرع، يسمع صوت بلعها المختنق وأنينها المكتوم. لعابها سال على ذقنه وعلى خصيتيه. بعد دقائق سحب نفسه من فمها، رفعها، وألقاها على الفراش النباتي.

فتح فخذيها بقوة. شفرها كانا منتفخين ولامعَين بالرطوبة. دسّ لسانه بينهما ولعق من أسفل إلى أعلى ببطء، ثم ركز على بظرها المنتفخ، يمصه بقوة ويرفرف لسانه عليه. هالة رفعت وركيها وصوتها ارتفع:

— أدخل لسانك... أعمق...

أطاعها. دفع لسانه داخل فتحاتها، يلعق ويمص ويتذوق ملوحة إثارتها. عندما جاءت المرة الأولى، تشنج جسدها كله، فخذاها ضغطتا على رأسه، وسائلها سال على فمه وذقنه.

لم يمهلها. صعد فوقها، وضع رأس قضيبه على فتحاتها، ودفعه كله دفعة واحدة حتى ارتطمت خصيتاه بمؤخرتها. صرخت من الامتلاء. بدأ ينكحها بقوة وسرعة، كل دفعة عميقة تهز نهديها و تجعل الفراش يصرّ. هالة لفّت ساقيها حوله وأخذت تقابل دفعاته برفع وركيها.

— أقوى... اكسري...

ماهر قلبها على بطنها، رفع مؤخرتها، ودخلها من الخلف دفعة واحدة حتى النهاية. يده اليمنى أمسكت شعرها وجذبت رأسها إلى الخلف، بينما اليسرى تضرب مؤخرتها ثم تفرك بظرها بسرعة. صوت صفعة اللحم على اللحم ملأ البيت. هالة جاءت مرة ثانية وهي تصرخ اسمه، جدرانها تنقبض حوله بعنف. ماهر لم يصمد أكثر. دفع نفسه إلى أعمق نقطة وفرغ داخلها دفقات ساخنة متتالية، أنينه منخفض وطويل وهو ينقبض مرارًا.

بقيا متصلين حتى لين قضيبه. ثم انسحب، وسال منيه من بين فخذيها على الفراش.

في البيت المجاور، كان نادر وليلى يمارسان الجنس منذ ساعة.

ليلى كانت على أربع فوق الفراش، مؤخرتها مرتفعة، ونادر خلفها ينكحها بعمق وقوة. نهداها يتدليان ويهتزان مع كل دفعة، وشعرها الأسود الطويل يتطاير. نادر أمسك وركيها بقوة وترك بصمات أصابعه على جلدها، ثم انحنى وعضّ كتفها وهو يزداد سرعة.

— قولي لي لمن هذا الفرج... أمرها بصوت خشن.

— لك... كله لك... أجابت بين أنين مكسور.

سحب نفسه فجأة، استلقى على ظهره، وجعلها تركب فوقه معكوسة (وجهها نحو قدميه). ليلى أمسكت قضيبه وأدخلته داخلها ببطء، ثم بدأت تتحرك صعودًا وهبوطًا بقوة، مؤخرتها تضرب بطنه في كل نزلة. نادر فتح مؤخرتها بأصابعه ونظر إلى المكان الذي يختنق فيه قضيبه داخلها، ثم دسّ إصبعًا في فتحة دبرها. ليلى صرخت من اللذة المفاجئة وازدادت سرعة.

عندما اقتربت من القمة، سحبها نادر إلى الأمام حتى أصبح فرجها فوق وجهه، وبدأ يلعقها ويمص بظرها بشراهة بينما هي ترضع قضيبه في وضع الـ69. جاءت وهي تئن في فمه، سائلها يسيل على لسانه وذقنه. نادر قلبها بسرعة، رفع ساقيها على كتفيه، ودخلها بقوة حتى ارتطمت خصيتاه بمؤخرتها من جديد. بعد دقائق قليلة انفجر داخلها، دافعًا نفسه إلى النهاية مع كل دفقة.

بعد ساعة، انفتح الباب بهدوء.

دخل رجل آخر من المجموعة — شاب قوي يُدعى سامي — عاريًا بالفعل، قضيبه منتصب وسميك. هالة كانت لا تزال عارية ومبللة بمنّي ماهر. نظرت إلى ماهر، فأومأ

لها. اقترب سامي من الفراش. هالة ركعت بين الرجلين، أخذت قضيب ماهر في فمها وقضيب سامي في يدها، ثم تبادلت بينهما، تلعق وتمص وتبلع حتى صار اللعاب يربط بين الثلاثة.

ماهر استلقى على ظهره. هالة ركبته وأدخلته داخل فرجها، ثم انحنت إلى الأمام. سامي وقف خلفها، بلل رأس قضيبه بلعابها وبدأ يدفعه ببطء في فتحة دبرها. هالة أرنت بصوت عالٍ من الامتلاء المزدوج. عندما دخل سامي بالكامل، بدأ الرجلان يتحركان بتناغم: ماهر من الأسفل وسامي من الخلف. هالة كانت محشورة بينهما، نهداها يرتجفان، وصوتها يتحول إلى نحيب لذة مستمر.

سامي أمسك شعرها وجذب رأسها إلى الخلف بينما يزيد سرعته في دبرها. ماهر يرفع وركيه بقوة لينكح فرجها. بعد وقت طويل جاءت هالة بقوة هائلة، جسدها يرتعش بلا سيطرة، وسوائلها تسيل على قضيب ماهر وعلى الفراش. سامي انسحب من دبرها ودفع قضيبه في فمها حتى فرغ في حلقها. ماهر تبعه بعد ثوانٍ، يفرغ داخل فرجها مرة ثانية.

الثلاثة سقطوا على الفراش، يتنفسون بصعوبة، أجسادهم لامعة بالعرق والمني والسوائل.

في البيت الآخر، كانت ليلى راقدة على ظهرها، ساقاها مفتوحتان، بينما امرأة أخرى من المجموعة — تُدعى رنا — تلعق فرجها بشراهة. لسان رنا كان سريعًا وماهرًا، يركز على بظر ليلى ثم ينزل ليسبر فتحاتها. نادر كان يقف إلى جانب الفراش، يمسك رأس رنا ويدفعها أكثر بين فخذي ليلى.

بعد أن جاءت ليلى على لسان رنا، جعل نادر المرأتين على أربع متجاورتين. دخل ليلى من الخلف أولاً، ينكحها بعمق، ثم انتقل إلى رنا وفعل الشيء نفسه. المرأتان كانتا تتقبلان، تئنان، وتتقبلان قبلات عميقة بينما نادر ينتقل بينهما.

ثم استلقى نادر على ظهره. ليلى ركبته وأدخلته في فرجها. رنا جلست على وجهه، فرجها فوق فمه، بينما هي تقبّل ليلى وتمسك نهديها. نادر لعق رنا ونام وهو ينكح ليلى من الأسفل. بعد فترة تغيرت الوضعية: رنا انحنت ولعقت المكان الذي يدخل فيه قضيب نادر إلى ليلى، ثم سمحت لنادر أن يدخلها هي أيضًا بينما ليلى تلعق بظرها.

الليلة انتهت عندما فرغ نادر داخل رنا، بينما ليلى كانت تجلس على وجه رنا وتأتي للمرة الثالثة. الثلاثة ناموا متشابكين، رائحة الجنس القوية تملأ البيت الطيني الصغير.

خارج البيوت، تحت السماء البرتقالية، كانت هوائيات الأشجار تتحرك ببطء.

كأنها حسّت بالحرارة الزائدة، وبالسوائل، وبالأجساد التي تبحث عن شيء أقدم من الهدنة وأعمق من الكلمات.

في تلك الليلة، لم يكن هناك حدود.

فقط لحم، وعرق، ومنّي، وأنين.

وجذور... تسمع كل شيء.

الفصل 21

أسطورة مشتركة

مرت سنوات.

الطفل الأول ولد تحت السماء البرتقالية، وسُمّي «أمل». ثم جاء آخرون. القرية الصغيرة لم تعد تسعة أشخاص. أصبحت اثنين وعشرين. البيوت الطينية المنخفضة امتدت في صفوف منتظمة داخل الحدود التي لم تعد تضيق ولا تتسع كثيرًا. الحقول صارت أوسع، والمحاصيل أكثر تنوعًا. الشبكة النباتية كانت قد سمحت بجداول إضافية، وبظل جزئي من أشجارها في أطراف المساحة، كأنها لم تعد ترى في البشر خطرًا فوريًا... ولا شركاء كاملين بعد.

ماهر كان قد شاب. شعره الأبيض يلامس كتفيه، ويده ترتجف قليلًا عندما يلمس الجذور في الصباحات الباردة. سارة إلى جانبه، أكثر هدوءًا مما كانت في أيام الرماد الأولى، تحمل حفيدًا صغيرًا على ركبتها أحيانًا. هالة أصبحت المعلمة التي تُعلّم الأطفال كيف يزرعون، وكيف يسمعون النبضات الخفيفة في التربة. نادر وليلى لهما ثلاثة أبناء، أحدهم يمضي ساعات طويلة جالسًا أمام شجرة وردية، يحاول أن يرسم هوائياتها على قماش من ألياف نباتية.

كريم وأنصاره لم يعودوا. لم يُعثر لهم على أثر. البعض يقول إنهم ماتوا خلف الحاجز. والبعض الآخر يهمس أنهم وجدوا مكانًا آخر، أو أن الشبكة طوتهم بهدوء. لا أحد يعرف. والشبكة عندما سُئلت أجابت مرة واحدة فقط: «لم يعودوا جزءًا من الدورة هنا».

في مساء هادئ، وقف ماهر على التلّة الترابية القديمة التي بناها مع سارة قبل سنوات. السماء البرتقالية كانت كثيفة كالعادة، لكن الأطفال كانوا يلعبون تحتها دون أن ينظروا إليها كشيء غريب. بالنسبة إليهم كانت هذه هي السماء الوحيدة.

سارة جاءت ووقفت إلى جانبه.

— هل نجحت؟ سألته كما سألته مرة في سنة بعيدة.

ماهر ابتسم ابتسامة متعبة.

— نجحت في أن نستمر. نجحت في أن يولد أطفال لا يعرفون رائحة الإشعاع. نجحت في أن نتحدث مع من كانوا سيبدون لنا وحوشًا أو آلهة في زمن آخر. أما الباقي... فالأسطورة لم تُكتب بعد بالكامل.

نظر إلى الحقول، إلى البيوت، إلى صف الأشجار الوردية الذي لم يقترب ولم يبتعد منذ سنوات.

— ما زال فينا الشك. ما زال فيهم الحذر. أي جيل جديد قد يقرر أن الحدود إهانة، أو أن الشبكة قفص. وأي تغير في الشبكة قد يجعلها تقرر أننا لم نعد مفيدين بما يكفي. التعايش صمد... لكنه لم يصبح أبديًا. هو فقط... مستمر حتى الآن.

سارة أسندت رأسها إلى كتفه كما فعلت مرات كثيرة.

— إذن هذه ليست نهاية.

— لا. أجاب. هذه أسطورة مشتركة. جزء منها بشري، وجزء نباتي، وجزء لا يملكه أحد منا بالكامل. الأسطورة تُروى كل يوم عندما يزرع طفل بذرة، أو عندما تهمس الجذور بشيء نفهمه بعد فوات الأوان. وهي تُروى أيضًا في الصمت...

عندما ننظر إلى السماء البرتقالية ونتذكر أن عالمًا أزرق احترق خلفنا، وأننا ما زلنا هنا.

في الأفق، تحركت هوائيات الأشجار في موجة بطيئة واحدة. لم يأتِ صوت. لم تكن هناك حاجة. الأطفال ضحكوا من بعيد. ريح خفيفة مرت لأول مرة منذ أيام، حاملة رائحة تربة مبللة وأوراق وردية.

ماهر رفع عينيه نحو الغيوم الكثيفة.

تحت هذه السماء التي لا تشبه أي سماء عرفها البشر من قبل، كان مجتمع صغير هش يتنفس.

لم ينتصر أحد تمامًا.

ولم يهزم أحد تمامًا.

فقط... استمرت الحياة.

بصيغة جديدة.

تحت سماء برتقالية.

وبين جذور لا تنام، وأيدٍ بشرية لا تزال تتعلم كيف تلمس دون أن تمسك أكثر مما يجب.

والقصة...

لم تنتهِ.

بل أصبحت أسطورة تُروى بصوتين.

صوت من لحم ودم.

وصوت من عصارة وهواء.

وأسطورة مشتركة...

هي كل ما تبقى بعد الرماد.

وكل ما يمكن أن يبدأ من جديد.

انتهت الرواية.

الفصل الحادي والعشرون يغلق القصة بنهاية مفتوحة متوازنة، تحترم روح العمل الأصلي وتعمقها: تعايش هش مستمر، شكوك باقية، وأمل هادئ تحت سماء مختلفة.